تهذيب كتاب

طريق الهجرتين وباب السعادتين

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل: تهذيب كتاب
طريق الهجرتين وباب السعادتين

اسم المؤلف: شمس الدين محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)

تهذيب وتعليق: المهندس عادل السيد عبد الله

مراجعة وتقديم: المحروس ابوبكر الملاطاهر البحركي

الإخراج الداخلي: ماهيتاب يحيى

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

رقم الإيداع: 28454-2024

الترقيم الدولي: 978-633-8254-06-3

مسار للنشر و التوزيع

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر

01020439639

massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

تهذيب كتاب

طريق الهجرتين وباب السعادتين

شمس الدين محمد بن أبي بكر
(ابن قيم الجوزية)

مَسَار
للنشر و التوزيع

تقديم
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الاولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإنَّ الدين الذي رضيه الله سبحانه وتعالى لنا دينا، ومن ابتغى غيره لن يقبل منه، قد قسمه نبي الرحمة ﷺ في حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] الى ثلاثة محاور:

المحور الاول: الاسلام وأركانه الخمسة كما مذكور فى الحديث.

المحور الثاني: الايمان وأركانه الستة كما مذكور فى الحديث.

المحور الثالث: الإحسان وهو-كما عرفه رسول الله ﷺ في الحديث: أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك.

والذي نحن بصدده هو المحور الثالث، وقد صنف فيه العلماء مصنفات جليلة، وكان الاوائل يسمونه الزهد ثم اشتهر باسم التصوف، فأصبح علما مستقلا، له مصطلحاته ومنازله ورجاله كما حدث للمحورين قبله.

(1) مسلم 93.

وهذا الكتاب الذي بين يديك محاولة لتقريب هذا المحور الثالث للقراء الكرام عمليا لا نظريا، وهو تهذيب واختصار لكتاب (طريق الهجرتين وباب السعادتين) الذي هو شرح لبعض المواضع في كتاب (منازل السائرين) لأبي اسماعيل الهروي الانصاري الفقيه الحنبلي الاصولي المحدث الصوفي (ت:481هـ) والشارح هو العلامة ابن القيم (ت: 751 هـ).

وقد يدب سؤال الى ذهن بعض القراء وهو ان ابن القيم الذي هو تلميذ ابن تيمية الذين اشتهرا بمعادات التصوف فكيف يؤلف في التصوف؟ والجواب من هذا السؤال هو ان هذا السؤال ناتج من قصور في فهم السائل وعدم العلم بسيرتهما، بل بسيرة علماء الاسلام؛ فقلما تجد عالما الا وله اسهام في التصوف.

وأما بخصوص الشيخين الجليلين فقد نقل ابن المبرد الحنبلي فى رسالته (بدء العلقة بلبس الخرقة) في صفحة 48: ان ابن تيمية قال: كنت قد لبست خرقة التصوف عن جماعة من الشيوخ من جملتهم الشيخ عبد القادر الجيلي وهي أجل الطرق المشهورة، وقال فى جامع المسائل؛ 8:407: (لبست الخرقة المباركة للشيخ عبدالقادر وبيني وبينه اثنان).

وأما ابن القيم فله كتب كثيرة في مجال التصوف، ولو لم يكن له الا هذا الكتاب المبارك لكفى له شاهدا على علوّ باعه في هذا الميدان.

وقد قام الأخ الفاضل اللبيب المهندس عادل السيد عبدالله، الذي هو من من طلاب مدرستنا (حجرة بحركة) بإختصار وتهذيب كتاب (طريق الهجرتين وباب السعادتين) لأنه كان طويلا نوعا ما، وقد قلّت همم قرّاء هذا الزمان ولا يقتربون من الكتب التي تنير دربهم واحتجبوا عنها بسبب طولها أو أسلوبها، وقد وضع لنفسه منهجا لهذا التهذيب ذكره في المقدمة، فجاء تهذيبه وفق المنهج ليكون سهلاً في متناول جميع القراء. وكان لي شرف مراجعة واشراف هذا التهذيب، نسأل الله تعالى أن يجعل في ميزان مؤلف أصل الكتاب وشارحه ومهذبه، وألّا يحرمنا من الأجر الجزيل انه حميد مجيد، وبالإجابة جدير.

وصلى الله على نبينا محمد ماذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا.

ابوبكر الملا طاهر البحركي

15/رمضان/1445هـ

25/آذار/2024م

مدرسة بحركة الحلقية للعلوم الشرعية

أربيل/ إقليم كوردستان العراق

مقدمة التهذيب
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الامين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام الغُرِّ الميامين ومن والاه أجمعين، وبعد:

فإن كتاب « طريق الهجرتين وباب السعادتين» للإمام الأجلّ شمس الدين محمد بن أبي بكر إبن القيم الجوزيّة ﵀ عظيم القدر، كثير الفائدة لا سيما في مجال السلوك وتزكية النفس حيث عليهما مدار الكتاب ومراده. فإن للإمام تسعة كتب أخرى فى نفس المجال وهم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، حادي الأرواح الى بلاد الافراح، الداء والدواء، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، الوابل الصيب من الكلم الطيب، وكتاب الفوائد... وغيرهم. لكن اثنين مهنم يحسبان ذروة سنام كتبه في هذا المجال وهما كتاب «طريق

الهجرتين وباب السعادتين» وكتاب « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

يمتاز كتاب طريق الهجرتين بدقة العبارة، وتفصيل المواضيع، وتقديم المنهج العملي للقارئ، خاصة في مجال التزكية والتربية وعلم المقامات. يحتوي الكتاب على كثير من تجاربه الشخصية ودقائقه العلمية والعملية، ويقدم صورة كاملة للقارئ في سيره وسلوكه الى الله تعالى حيث يبدأ الكتاب بموضوع الهجرتان الى الله بالطلب والمحبة والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار في كل نفس اليه، وهجرة الى رسوله ﷺ في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة. وأول منزلة يسيربها السالك الى الله هو منزلة الفقر، ثم بعده يتفصل الى منازل اخرى كالغنىٰ، والمحبة، والصبر، والخوف، والشوق...ويختتم الكتاب بمراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم.

وبغلبة الظن فإن الامام ابن القيم قام بتأليف كتاب طريق الهجرتين قبل كتاب مدارج السالكين حيث ذكره فيه تلميحاً وقال فى ج2، ص44: «ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لازم على الانفاس: هجرة الى الله سبحانه بالتوحيد، والاخلاص، والانابة، والحب، والخوف، والرجاء، والعبودية. وهجرة الى رسوله بالتحكيم له، والتسليم، والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته، فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل... فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على راسه الرماد...»،

وتأليفه لهذا الكتاب وقع بعد وفاة شيخه ابن تيمية الدمشقي ﷺ، حيث قال أثناء كتاب طريق الهجرتين في باب الزهد:»...وقد كفانا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه...».

وأما المصادر التى اعتمد عليه ابن القيم ﷺ فى هذا الكتاب كثيرة، منها مصادر كتب التفسير، والحديث، والكلام، والعقائد، لكن ثلاثة منه عليه مدار الكتاب ومحوره الرئيسية، وهم: منازل السائرين للهروي، ومحاسن المجالس لابن العريف، والرسالة للقشيري.

والكتاب لكبر حجمه وتوسعة مواضيعه وتطرقه الى مناقشات كلامية قصر الإستفادة منه، ثم لقلّة صبر قارئ اليوم وانشغاله بمعيشته حيث شتت منه الفكر وسلب منه الجِّد حتى صعب عليه فهم فحوى الكتاب ومعاني مصطلحاته، لذلك القارئ أثناء القراءة يلمس أنَّ تهذيب واختصار هذا الكتاب النفيس أمر ضروري لابدّ منه، وهذا صحيح لجلّ كتب أئمتنا القدامى رحمهم الله جميعاً.

عملي في التهذيب:

– اعتمدت على الطبعة المحققة «طريق الهجرتين وباب السعادتين» بتحقيق: عصام فارس الحرستاني ومحمد يونس شعيب، دار الجيل بيروت، الطبعة الاولى 1418هـ-1998م. وايضا «طريق الهجرتين وباب السعادتين» بتحقيق: فواز أحمد زمرلى وفاروق حسن الترك، دار ابن حزم بيروت-لبنان، الطبعة الاولىٰ هـ2013-1434م، ومخطوطة مكتبة الاوقاف الكويتية، [الناسخ: عبدالقادر بن محمد بن موسى الينجيش].

– التهذيب والاختصار من غير إضرار بمحور الكتاب ومداره الرئيسية التي هي مجال السلوك والتزكية وعلم المقامات في السير الى الله وإلى رسوله ﷺ، والاحتفاظ بعباراته دون تغيير يذكر.

– حذف المناقشات والمواضيع الكلامية التي يعتبر من مواضيع الجانبية فى الكتاب.

– تخريج الأحاديث والآثار، والاقتصار على الأحاديث الصحيحة والحسنة..

– التحقيق بغير إرهاق القاريء بحواشى كثيرة مملة والتفاصيل المكررة، والتعليق على المواضيع حسب الضرورة.

– وضع عناوين مناسبة للمواضيع والفصول، وذلك بين [ ].

– شرح بعض الكلمات النادرة، والتعليق على بعض التعبيرات والمصطلحات حسب الضرورة.

وبعد شكر الله سبحانه وتعالى، عليَّ أن اشكر من صميم قلبي أستاذي الشيخ المهندس ابوبكر الملاطاهر البحركي الذي قام بمراجعة الكتاب وأشرف على تهذيبه وافادني بملاحظاته النافعة لعمل التهذيب وتكرم بكتابة مقالة التقديم على عمل التهذيب جزاه الله عني خير الجزاء.

وأسأل الله العظيم اولا وآخرا أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ويرزقني الإخلاص والقبول، فإنه خير مسؤول، وأن يجعل لهذا العمل القبول

في السماء والأرض، وأن ينتفع به المسلمون عامةً والقارئ والسامع خاصة. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

اقليم كوردستان العراق\السليمانية

المهندس عادل السيد عبدالله

31/12/2022

ترجمة المؤلف[٢]

هو الامام المحقق البارع الفقيه المحدث المفسر النحوي الاصولي شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الحنبلي.

اشتهر بابن قيم الجوزية، لما أنّ والده –وهو عالم مشهور بعلم الفرائض– كان قيماً للمدرسة الجوزية بدمشق، فعرف الامام بابن قيم الجوزية.

ولد فى سابع صفر سنة 691هـ، وكانت ولادته بعد جلاء الصليبيين بعام واحد، ونشأ في بيت علم ودين وورع وصلاح، وكان أبوه عالما وقيّماً للمدرسة الجوزية واخوه زين الدين ابو الفرج عبدالرحمن ايضا اماماً و قدوة.

(2) ينظر ترجمة الامام ابن القيم بالتفصيل في: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، البداية والنهاية لابن كثير، الدرر الكامنة لابن حجر، الوافي بالوفيات للصفدي، شذرات الذهب لابن العماد، بغية الوعاة للسيوطي، البدر الطالع للشوكاني، الرد الوافر لابن ناصر الدين، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، طبقات المفسرين للداودي، ايضاح المكنون للبغدادي، هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي.

بدأ ﷺ في طلب العلم منذ الصغر، وتعلم على يد كثير من العلماء مثل: والده ابوبكر بن ايوب، الشهاب العابر، ابو الفتح البعلبكي، بنت جوهر، الصفي الهندي، ابن مكتوم، ابن عبدالدائم، المجد الحراني، البدر بن الجماعة، الحافظ المزي، وابن مفلح، وكان أشهر شيوخه الامام العلامة أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام النميري المشهور بابن تيمية رحمهم الله جميعاً.

وكان مثالا يحتذى به في العبادة، قال فيه تلميذه ابن كثير في «البداية والنهاية»: ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الاحيان، فلا يرجع ولاينزع عن ذلك ﷺ تعالى.

وتتلمذ على يديه كثير من العلماء الأجلاء، مثل: الحافظ ابن رجب الحنبلي، الحافظ ابن كثير، الحافظ ابن عبدالهادي، شمس الدين النابلسي، وولداه ابراهيم وشرف الدين وغيرهم.

لقد برع الامام ابن القيم في شتى علوم اللغة والدين، من أصول وفروع وعقائد وسلوك، ومن أشهر مؤلفاته: زاد المعاد في هدي خير العباد، مفتاح دار السعادة، تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، رفع اليدين في الصلاة، اعلام الموقعين عن رب العالمين، الكافية الشافية لانتصار الفرقة الناجية، الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية، بيان الاستدلال على بطلان محلل السباق

والنضال، التحبير بما يحل ويحرم لبسه من الحرير، الفروسية المحمدية، جلاء الأفهام في أحكام الصلاة والسلام على خير الأنام، تفسير أسماء القرآن، تفسير الفاتحة، اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر، كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء، الرسالة الشافية في أسرار المعوذتين، معاني الأدوات والحروف، بدائع الفوائد...وكتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين.

والشيخ رحمه الله وان كان عليه بعض ملاحظات في مسائل عقدية وفقهية وخاصة في نونيته يستخدم ألفاظاً غير قيمة بحق العلماء، لكن كتابه هذا (طريق الهجرتين) تحفة قيمة في مجال التصوف حيث يحتاج اليها السالك كثيراً. وكما قيل ان لكل فارس كبوة، فهو وإن كان عليه ماذكرنا إلا ان له أضعاف هذا من المحاسن والجواهر والدرر.

توفي ليلة الخميس 13 رجب وقت اذان العشاء سنة 751 هـ وله من العمر ستون سنة رحمه الله.

خطبة الكتاب للمؤلف
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججاً، وحجب العقول والأَبصار أن تجد إلى تكييفه منهجاً، وأَوجب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجاً، وجعل لمن لاذ به واتقاه من كل ضائقة مخرجاً، وأَعقب من ضيق الشدائد وضنك الأَوابد[3] لمن توكل عليه فرجاً، وجعل قلوب أَوليائه متنقلة من منازل عبوديته من الصبر والتوكل والإِنابة والتفويض، والمحبة، والخوف، والرجا.

فسبحان من أَفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه، أَن رحمته تغلب غضبه. أسبغ على عباده نعمه الفرادى والتوءام، وسخر لهم البر والبحر والشمس والقمر والليل والنهار والعيون والأَنهار والضياءَ والظلام، وأَرسل

(3) الأوابد: الدّواهي، والدّواهي: ما يصيب الناس من عظيم نوبة، ينظر المعجم الوسيط باب الهمزة، ومختار الصحاح باب الدال..

إليهم رسله وأَنزل عليهم كتبه يدعوهم إلى جواره فى دار السلام، ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: 125].

فسبحان من ﴿أَنْزَلَ عَلَىَ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ [الكهف: 1] ، ورفع لمن ائتمَّ به فأَحلَّ حلالَهُ وحرَّمَ حرامَهُ وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه فى مراقى السعادة درجاً، ووضع قهره على من أَعرض عنه ولم يرفع به رأسه ونبذه وراءَ ظهره وابتغى الهدى من غيره، فجعله فى دركات الجحيم متولجاً[4]، فإنه الذكر الحكيم والصراط المستقيم والنبأُ العظيم وحبل الله المتين المديد بينه وبين خلقه، وعهده الذى من استمسك به فاز ونجا.

وأَشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, ولا سميَّ له ولا كفو له ولا صاحبة له ولا ولد ولا شبيه له ولا يحصي أَحد ثناءً عليه بل هو كما أَثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه خلقه، شهادة من أصبح قلبه بالإيمان بالله وأَسمائه وصفاته مبتهجاً، ولم يدع إلى شبه الجاحدين المعطلين معرجاً.

وأَشهد أَن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه وأَمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده، أَرسله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين. أَرسله على حين فترة

(4) متولجاً: من الولوج بمعنى الدخول، أي: مدخلاً، ينظر المعجم الوسيط ومختار الصحاح.

من الرسل، فهدى به إلى أَقوم الطرق وأَوضح السبل وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدَّ إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأَحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أَمره. فهدى به من الضلالة وعلَّم به من الجهالة. وكثَّر به بعد القلَّة، وَأعزَّ به بعد الذلَّة وأَغنى به بعد العَيْلَة، وبصَّر به من العمى، وأَرشد به من الغي وفتح برسالته أَعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا، فَبَلَّغ الرسالة وأَدَّى الأَمانة ونصح الأُمة وجاهد في الله حق جهاده وعَبَدَ الله حتى أَتاه اليقين، فلم يدع خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذر منه، ونهى عن سلوك الطريق الموصلة إليه. ففتح القلوب بالإِيمان والقرآن، وجاهد أَعداءَ الله باليد والقلب واللسان. فدعا إلى الله على بصيرة، وسار في الأُمة بالعدل والإِحسان وخلقه العظيم أَحسن سيرة، إلى أَن أَشرقت برسالته الأَرض بعد ظلماتها، وتأَلفت به القلوب بعد شتاتها. وسارت دعوته سير الشمس في الأَقطار وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار. واستجابت لدعوته الحق القلوبُ طوعاً وإذعاناً[5]، وامتلأَت بعد خوفها وكفرها أَمناً وإِيماناً، فجزاه الله عن أُمته أَفضل الجزاءِ، وصلى عليه صلاة تملأُ أَقطار الأَرض والسماء، وسلم تسليماً كثيراً.

(5) اذعانا: مصدر أذعن: أي: انقاد وأقرَّ به. ينظر المعجم الوسيط، باب الذال.

أَما بعد..

فإِن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده فى قلوب من اختارهم لربوبيته، واختصهم بنعمته، وفضلَّهم على سائر خليقته، فهى ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ [إبراهيم: 24-25] ، فكذلك شَجَرَةُ الإِيمان أَصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح فى السماءِ، فلا تزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت بإِذن ربها من طيب القول وصالح العمل ما تقرُّ به عيون صاحب الأَصل وعيون حفظته وعيون أَهله وأَصحابه ومن قرب منه، فإِنَّ من قرَّت عينه بالله سبحانه قرَّت به كل عين وأَنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث وفرح به كل حزين وأَمن به كل خائف وشهد به كل غائب، وذكرت رؤيته بالله، فإِذا رؤى ذكر الله فاطمأَن قلبه إلى الله وسكنت نفسه إلى الله وخلصت محبته لله وقصر خوفه على الله وجعل رجاءَه كله لله، فإِن سمع، سمع بالله وإِن أَبْصر أَبصر بالله وإن بطش بطش بالله وإِن مشى مشي بالله، فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي، فإِذا أَحب فللَّه وإِذا أَبغض أبغض لله وإِذَا أَعطى فللَّه وإِذَا منع فللَّه، قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله وحده دليله وإِمامه وقائده وسائقه، فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائِهِ وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداءِ به والتخلق بأَخلاقه والتأَدب بآدابه.

فله[6] في كل وقت هجرتان:

هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاءِ والإقبال عليه وصدق اللجإِ والافتقار فى كل نفَس إليه.

وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محابّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أَحد ديناً سواه، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد.

وقال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد[7] قدّس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبي ﷺ[8]، فإن الله ﷻ يقول: «وَعِزَّتِى وَجَلالِي لَوْ أَتَونِى مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَاسْتَفْتَحُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ، لَمَا فَتَحتُ لَهُمْ حَتَّى يَدخُلُوا خَلْفَكَ ». قال بعض العارفين: كل عمل بلامتابعة فهو عيش النفس[9].

---

(6) أي: للسالك

(7) هو ابوقاسم جنيد بن محمد بن جنيد النهاوندي ثم البغدادي، أصله من نهاوند، منشؤه و مولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج، فلذلك يقال له القواريري. وكان فقيها على مذهب أبي ثور أحد أصحاب الشافعى. صحب السري، والحارث المحاسبي، ومحمد بن القصاب رحمة الله عليهم. توفى 297 هجري. الرسالة القشيرية.

(8) الرسالة القشيرية، ص143.

(9) رواه القشيري بسنده عن سهل بن عبدالله التستري في الرسالة ص118.

ولما كانت السعادة دائرة- نفياً وإثباتاً- مع ما جاءَ به كان جديراً بمن نصح نفسه أَن يجعل لحظات عمره وقفاً على معرفته، وإرادته مقصورة على محابه، وهذا أَعلى همة شمر إليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون، فلا جرم ضمنَّا هذا الكتاب قواعد من سلوك الهجرة المحمدية، وسميناه طريق الهجرتين وباب السعادتين، وابتدأناه بباب الفقر والعبودية؛ إذ هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأَقوم الذى لا سبيل إلى دخولها إلا منه، وختمناه بذكر طبقات المكلَّفين من الجن والإنس فى الدنيا و الآخرة, ومراتبهم فى دار السعادة والشقاوة[10]. فجاءَ الكتاب غريباً في معناه، عجيباً في مغزاه لكل قوم منه نصيب، ولكل وارد منه مشرب وما كان فيه من حق وصواب فمن الله هو المانّ به فإنما التوفيق بيده وما كان فيه من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براءٌ.

فيا أَيها القاريء له والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه. ولك ثمرته، وعليه عائدته. فإن عدم منك حمداً وشكراً، فلا يعدم منك مغفرة وعذراً، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح، وقد:

استأْثر الله بالثناءِ وبال حمد وولى الملامة الرجلا.

والله المسؤول أَن يجعله لوجهه خالصاً، وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه فى الدنيا والآخرة، إنه سميع الدعاءِ، وأَهل الرجاءِ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(10) اشار المؤلف ﷺ الى سبب التأليف للكتاب.

فصل [في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه]

قال الله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

بيَّن سبحانه فى هذه الآية أَن فقر العباد إِليه أَمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أَن كونه غنياً حميداً أمر ذاتى له، فحاجة العبد إِلى ربه لذاته لا لعلة أَوجبت تلك الحاجة، كما أَن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأَمر أَوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[11]:

والفقر لى وصفُ ذاتٍ لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي

(11) هو شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الدمشقي، ولد ﷺ سنة 661 هجري، انتقل مع والده من حران الى دمشق هربا من التتار، و سجن عدة مرات، له مؤلفات عديدة اشهرها مجموع الفتاوى، و توفى ﷺ سنة 728 هجرى.
تنبيه: في هذا الكتاب إذا قال المؤلف «شيخ الاسلام ابن تيمية» يقصد شيخه، وإذا قال «شيخ الاسلام» أو «شيخ الاسلام الانصاري» يقصد شيخ الاسلام الهروي، اي صاحب كتاب «منازل السائرين».

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أَسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أَدلّة على الفقر لا أَسباب له، ولهذا كان الصواب فى مسأَلة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون، فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان، والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار، وفقر العالم إلى الله ﷻ أَمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته.

أقسام الفقر

إذا عُرِفَ هذا فالفقر فقران:

فقر اضطرارى: وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضي مدحاً، ولا ذماً، ولا ثواباً، ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

والفقر الثانى فقر اختيارى: هو نتيجة علمين شريفين: أَحدهما معرفة العبد بربّه، والثاني معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أَنتجتا له فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم فى هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربّه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربّه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربّه بالعلم التامّ والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله سبحانه أَخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاءٍ ولا منع ولا ضر

ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره فى تلك الحال إلى ما به كماله أَمراً مشهوداً محسوساً لكل أَحد، ومعلوم أَن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إِلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إِلى بارئه وفاطره. فلما أَسبغ عليه نعمته، وأَفاض عليه رحمته وساق إِليه أَسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إِنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلَّمه وأَقدَره وصرَّفه وحرَّكه، ومكَّنه من استخدام بني جنسه، وسخَّر له الخيل والإِبل، وسلطه على دواب الماءِ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية، حفر الأَنهار، وغرس الأَشجار، وشق الأَرض، وتعلية البناءِ، والتحيل على مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظنَّ المسكين أَن له نصيباً من الملك، وادعى لنفسه مُلكاً مع الله سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأُولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإِعدام والفقر والحاجة، حتى كأَنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأَنَّ ذلك شخصاً آخر غيره، كما روى الإِمام أَحمد في مسنده من حديث بسر بن جحاش القرشي أَنَّ رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إِصبعه ثم قال: «قال اللهُ تعالى: يَا ابن آدمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنَ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيد، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ»[12]، ومن هاهنا خذل

(12) أحمد (17842)، ابن ماجه (2707)، المستدرك (3909) وقال هذا

من خذل ووفق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربّه، فطغى وبغا وعتا[13] فحقت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [العلق: 6-7] ، وقال: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾[الليل: 5-10].

فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربّه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»[14]، وكان يدعو: «يا مقلِّب القُلُوبِ ثبِّتْ قلبِي عَلَى دينك»[15]. يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن ﷻ لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاءُ. وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراءِ ومقام الدعوة ومقام التحدى، فقال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾ [الإسراء:1]، وقال: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ**﴾

حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، والوئيد: الشكوى، وأنى أوان الصدقة، أي: فات وقت الصدقة.

(13) عتا: استكبر وجاوز الحد، المعجم الوسيط، باب العين.

(14) حسن، أحمد (20430)، البخاري في الادب المفرد (701)، أبوداود (5090).

(15) أحمد (17630)، الترمذي (3587)، ابن ماجه (199)، ولمسلم بلفظ «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» (2654).

[الجن: 19]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23].

وفي حديث الشفاعة: «إِنَّ المسيحَ يَقُولُ لَهُمْ يوم القيامة : اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»[16]، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له، فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾ [فاطر: 15] ، فعلق الفقر إليه باسمه دون اسم الربوبية ليؤذَن بِنَوعَي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأَسرها، وفقر إلى أُلوهيته وهو فقر أَنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع والذي يشير إليه القوم [17]ويتكلمون عليه ويشيرون إليه، هو الفقر الخاص لا العام، وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفُهُم له، وكلٌ أَخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير.

(16) البخاري (4476)، مسلم (193).

(17) يقصد الصوفية وأرباب السلوك.

[معنى الفقر ودرجاته]

قال شيخ الإسلام الأَنصارى[18],[19]:

«الفقر اسم للبراءَة من رؤية الملكة، وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأُولى: فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أَو طلباً، وإِسكات اللسان عنها ذماً أَو مدحاً، والسلامة منها طلباً أَو تركاً، وهذا هو الفقر الذي تكلّموا في شرفه. الدرجة الثانية: الرجوع إِلى السبق بمطالعة الفضل، وهو يورث الخَلاص من رؤية الأَعمال، ويقطع شهود الأَحوال، ويمحص من أَدناس مطالعة

(18) هو شيخ عبدالله بن محمد بن علي بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور بن متّ الهروي الانصاري، الفقيه المفسر الحافظ، الصوفي الواعظ، شيخ الإسلام أبو إسماعيل، وهو من ولد أبو أيوب الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولد في شعبان سنة 396 هجري، وتوفي ﷺ تعالى يوم الجمعة بعد العصر ثاني عشرين ذي الحجة سنة 481 هجري، ودفن في هراة. وصنف تصانيف كثيرة، منها: كتاب ذمّ الكلام، الفارق، مناقب الامام أحمد، ومنازل السائرين، علل المقامات، كتاب في تفسير القرآن بالفارسية، وكتاب مجالس التذكير بالفارسية، وغير ذلك. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ج1،ص50.

(19) فى كتابه «منازل السائرين».

المقامات. والدرجة الثالثة: صحة الاضطرار والوقوع في يد التقطع الوحداني والاحتباس في قيد التجريد وهذا فقر الصوفية ».

فقوله: «**الفقر اسم للبراءَة من رؤية الملكة**» يعني أَنَّ الفقير هو الذي يجرد رؤية الملك لمالكه الحقّ، فيرى نفسه مملوكة لله لا يرى نفسه مالكاً بوجه من الوجوه، ويرى أَعماله مستحقة عليه بمقتضى كونه مملوكاً عبداً مستعملاً فيما أَمره به سيده، فنفسه مملوكة، وأَعماله مستحقة بموجب العبودية، فليس مالكاً لنفسه ولا لشيء من ذراته ولا لشيء من أَعماله. بل كل ذلك مملوك عليه مستحق عليه، كرجل اشترى عبداً بخالص ماله ثم علّمه بعض الصنائع، فلما تعلَّمها قال له: اعمل وَأَدّ إِليَّ فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء، فلو حصل بيد هذا العبد من الأَموال والأَسباب ما حصل لم ير له فيها شيئاً، بل يراه كالوديعة في يده، وأَنها أَموال أُستاذه وخزائنه ونعمه بيد عبده، مستودعاً متصرفاً فيها لسيده لا لنفسه، كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه: «والله إِنى لا أَعطى أحداً ولا أَمنع أَحداً، وإِنما أَنا قاسم أَضع حيث أُمرت»[20].

قوله: «**الدرجة الأُولى فقر الزهاد، وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أَو طلباً، وإِسكات اللسان عنها ذمّاً أو مدحاً، والسلامة منها طلباً أَو تركاً، وهذا هو الفقر الذي تكلّموا في شرفه**». فحاصل هذه الدرجة فراغ اليد والقلب من الدنيا

(20) البخاري 3117.

والذهول عن الفقر منها والزهد فيها، وعلامة فراغ اليد نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً فهو لا يضبط يده مع وجودها شحاً وضناً بها، ولا يطلبها مع فقدها سؤالاً وإلحافاً وحرصاً.

وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها، فإن الشيء إذا صغر أَعرض القلب عنه مدحاً أَو ذماً. فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الأَمراض كلها: من مرض الضبط، والطلب، والذم، والمدح، والترك.

فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتَي الداخل بكليته في الدنيا قد ركن إليها واطمأَن إليها واتخذها وطناً وجعلها له سكناً، وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه، وتخلص من قيودها ورعونتها وآثارها، وارتقى إلى ما يسر القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذبات العزّة فهو في البرزخ كالحامل المقرّب ينتظر ولادة الروح والقلب صباحاً ومساءً، فإنَّ من لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته فهو كالجنين في بطن أُمه الذي لم يرَ الدنيا وما فيها. فهكذا هذا الذي بَعْدُ في مشيمة النفس، والظلمات الثلاث هي: ظلمة النفس، وظلمة الطبع، وظلمة الهوى. فلا بدَّ من الولادة مرَّتين كما قال المسيح للحواريين: إنكم لن تجلوا ملكوت السماءِ حتى تولَّدوا

مرتين[21]. ولذلك كان النبي ﷺ أباً للمؤمنين كما فى قراءَة أُبَيّ: «النبي أَولى بالمؤمنين من أَنفسهم وهو أَبٌ لهم»[22]، ولهذا تفرَّع على هذه الأبوة أَن جعلت أَزواجه أُمهاتهم، فإنَّ أَرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أُخرى غير ولادة الأُمهات، فإنه أَخرج أَرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيّ إلى نور العلم والإيمان وفضاءِ المعرفة والتوحيد، فشاهدَت حقائق أُخر وأُموراً لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿**الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾ [إبراهيم: 1] ، وقال: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة: 2] وقال: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: 164].

(21) نقلا عن كتاب الزهد للإمام أحمد ﷺ، و أورد الامام ابن قيم فى كتابه مدارج السالكين ج3 146 فى الوقت، و أورد قول شيخه ابن تيمية ﷺ ب: سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية -ﷺ- يقول: هى ولادة الارواح و القلوب من الابدان، و خروجها من عالم الطبيعة كما ولدت الابدان من البدن و خرجت منه. والولادة الاخرى هي الولادة المعروفة والله اعلم.

(22) هذه قراءة تفسيرية عن أبي بن كعب، وقد صحت عن قتادة، تفسير الطبرى فى تفسير سورة الاحزاب ج14، وابن ابي حاتم في تفسيره عن مجاهد وعكرمة ج13.

والمقصود أَنَّ القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

قلب لم يولد، ولم يأنِ له، بل هو جنين في بطن الشّهوات، والغيّ والجهل والضلال.

وقلب قد ولِدَ وخرج إلى فضاءِ التوحيد والمعرفة وتخلَّص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرّت عينه بالله، وقرّت عيون به وقلوب، وأَنست بقربه الأَرواح، وذكرت رؤيته بالله، فاطمأَن بالله، وسكن إليه، وعكف بهمته عليه، وسافرتْ همه وعزائمه إلى الرفيق الأَعلى، لا يقرّ بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره.

وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحاً ومساءً، قد أَصبح على فضاءِ التجريد، وآنس من خلال الديار أَشعة التوحيد، تأبى غلبات الحب والشوق إلا تقرباً إلى مَنْ السعادة كلها بقربه، والحظّ كل الحظّ في طاعته وحبه، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه، فهو بين الدّاعين تارة وتارة، قد قطع عقبات وآفات، وبقي عليه مفاوز وفلوات. والمقصود أَنَّ صاحب هذا المقام إذا تحقَّق به ظاهراً وباطناً، وسلَّم عن نظر نفسه إلى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده، فهو فقير حقيقي، ليس فيه قادح من القوادح التي تحطه عن درجة الفقر.

وقوله: «**الدرجة الثانية: الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخَلاص من رؤية الأَعمال، ويقطع شهود الأَحوال ويمحص من أَدناس مطالعة المقامات**»، فهذه الدرجة أَرفع من الأولى وأَعلى،

والأُولى كالوسيلة إليها، لأَنَّ في الدرجة الأولى يتخلى بفقره عن أَن يتأله غير مولاه الحق، وأَن يضيع أَنفاسه في غير مرضاته، وأَن يفرق همومه فى غير محابه، وأَن يؤثر عليه فى حال من الأَحوال. فيوجب له هذا الخلق وهذه المعاملة صفاء العبودية، وعمارة السر بينه وبين الله وخلوص الوداد والمحبة، فيصبح ويمسي ولا هم له غير ربّه، قد قطع همه بربّه عنه جميع الهموم وعطلت إرادته جميع الإِرادات ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه.

والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإِرادة وحب يخرج منه هم وإِرادة وحب يقابله، فهو إِناءٌ واحد والأَشربة متعددة، فأَي شراب ملأَه لم يبق فيه موضع لغيره، وإِنما يمتليء الإِناءُ بأَعلى الأَشربة إِذا صادفه خالياً، فأَما إِذا صادفه ممتلئاً من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه.

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه إِنائه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة، لأَن كل شراب فمسكر ولا بدّ، و»ما أَسكر كثيره فقليله حرام»[23]، وأَين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر، وكيف يوضع شراب التسليم–الذى هو أَعلى أَشربة المحبين–في إِناءٍ ملآن بخمر الدنيا والهوى ولا يفيق من سكره ولا يستفيق، ولو فارق هذا السكر القلب لطار بأَجنحة الشوق

(23) أحمد (14703)، أبوداود (3681)، الترمذي (1865)، ابن ماجة (3393).

إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضي المسكين بالدُّون[24]، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأَخس الثمن صفقة خاسر مغبون، فسيعلم أي حظ أَضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبطلون.

وإذا عرف العبد هذا وانكشف له علمه تعين عليه الزهد فى الأَحوال والفقر منها، كما تعين عليه الزهد فى المال والشرف وخلو قلبه منهما. ولما كان موجب الدرجة الأولى من الفقر الرجوع إلى الآخرة، فأَوجب الاستغراق في هَمِّ الآخرة، نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أَو طلباً، وإسكات اللسان عنها مدحاً أَو ذماً. وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع إلى فضل الله ﷻ ومطالعة سبقه الأَسباب والوسائط، فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأَقوال الشريفة، والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته، وقربه وكرامته وموالاته، وكان سبحانه هو الأَول فى ذلك كله كما أَنه الأَول فى كل شيء، وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر فى كل شيء، فمن عبده باسمه الأَول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهراً وباطناً فعبوديته باسمه الأَول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف عليها والالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأَنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد.

(24) الدّون: الحقير [يقصد الدنيا]، مختار الصحاح، حرف الدال.

فمن نزَّل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه الآخِرْ تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها فإنها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر ﷻ تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول.

وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسّره النبي ﷺ بقوله: «وأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيء»[25].

فإذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء، وأنه ليس فوقه شيء البتّة، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماءِ إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[فاطر: 10] ، صار لقلبه أملاً يقصده، وربّاً يعبده، وإلهاً يتوجه إليه.

وقال تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ**

(25) مسلم (2713)، الترمذي (3481).

﴿وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 4- 9] . فقد تعرّف سبحانه إلى عباده بكلامه.

والمقصود أَن التعبد باسمه الظاهِر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربّاً يقصده وصمداً يصمد إِليه في حوائجه، وملجأً يلجأُ إِليه، فإِذا استقرّ ذلك في قلبه وعرف ربّه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئلٌ يلجأُ إِليه ويهرب إِليه ويفر كل وقت إِليه.

وأما تعبده باسمه الباطِن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويَكِلُّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الاشارة اليه، وتخفو العبارة عنه.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إِحاطة الرّب تبارك وتعالى بالعالم وعظمته، وأَنّ العوالم كلها في قبضته، وأَنّ السموات السبع والأَرضين السبع في يده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ﴾ [الإسراء: 60]، وقال: ﴿واللهُ مِنْ وَرَآئِهِمْ مُحِيطٌ﴾[البروج: 20].

ولهذا يقرن سبحانه بينَ هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلوّ الدال على أَنه الظاهر وأَنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإِحاطة وأَنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255] [الشورى: 4]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ: 23] ، وقال: ﴿وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلّواْ فَثَمّ وَجْهُ الله إِنّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115].

و هو تبارك وتعالى كما أَنه العالي على خلقه فليس فوقه شيء، فهو الباطن فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أَقرب إِلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا أَقرب لإِحاطة العامة. وأما القرب المذكور في القرآن والسُّنَّة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، فهذا قربه من داعيه.

وقال تعالى: ﴿إِنّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]، فوجد الخبر وهو قريب عَن لفظ الرحمة وهي مؤنثة إيذاناً بقربه تعالى من المحسنين. فكأنه قال: إِن الله برحمته قريب من المحسنين[26].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[27]، و»أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ

(26) ان الله سبحانه قريب من عبده، بل هو أقرب اليه من حبل الوريد، لكن هذا القرب معنوي وليس حسيا، ويفسر قوله تعالى: ((ونحن أقرب اليه من حبل الوريد)) بقوله تعالى: ((ان رحمة الله قريب من المحسنين))، كما أن الامام أحمد فسر مجيء الله تعالى فى قوله: ((وجاء ربك)) بمجيء ثوابه، روى البيهقي أن احمد بن حنبل تأول قول الله ((وجاء ربك)) انه جاء ثوابه، ثم قال البيهقي: وهذا اسناد لاغبار عليه. ينظر: البداية والنهاية:386/ 14، تحقيق: عبدالله التركي، طبعة دارهجر 2003.

(27) مسلم (482)

اللَّيْلِ»[28]، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة. وفي الصحيح من حديث أَبي موسى أَنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ فإنكم لا تَدْعُونَ أَصمَّاً وَلا غائِباً، إِنَّ الَّذِى تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ »[29].

فمعرفة هذه الأَسماءِ الأَربعة وهي: الأَولُ، والآخِر، والظاهِر، والباطِن هى أَركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أَن يبلغ في معرفتها إِلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

والتعبد بهذه الأَسماءِ رتبتان: الرتبة الأولى أَنْ تشهد الأَولية منه تعالى في كل شيء والآخرية بعد كل شيء والعلو والفوقية فوق كل شيء والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أَقرب إِلى الخلق منه، والمرتبة الثانية من التعبّد أَن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأَوليته لكل شيء وسبقه بفضله وإِحسانه الأَسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إِفراده وعدم الالتفات إِلى غيره.

(28) أحمد (17018)، أبوداود (1277)، الترمذي (3579)، النسائي (572).

(29) البخاري (6409)، مسلم (2704).

ثم تعبد له باسمه الآخِر بأَن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءَه فكما انتهت إِليه الأَواخِر، وكان بعد كل آخِرٍ، فكذلك اجعل نهايتك إِليه، فإِن إِلى ربك المنتهى، إِليه انتهت الأَسباب والغايات فليس وراءَه مرمى ينتهي إِليه.

وأَما التعبد باسمه الباطِن، فإِذا شهدت إِحاطته بالعوالم وقرب العبيد منه وظهور البواطن له وبدوّ السرائر له وأَنه لا شيء بينه وبينها فعامِلْهُ بمقتضى هذا الشهود، وطهّرْ له سريرتك فإِنها عنده علانية، وأَصلِحْ له غيبك فإِنه عنده شهادة، وزكِّ له باطنك فإِنه عنده ظاهر. فمن جلى الله سبحانه صدأَ بصيرته وكمَّل فطرته وأوقفه على مبادئ الأُمور وغاياتها ومناطها ومصادرها وموارِدها، أَصبح كمفلس حقاً من علومه وأَعماله وأَحواله وأَذواقه يقول: أَستغفر الله من علمي ومن عملي[30].

فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبق منته ودوامه، فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر ثوابين: أَحدهما الخلاص من رؤية الأَعمال حيث كان يراها ويمتدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائباً عنها ذاهباً عنها فانياً عن رؤيتها، الثواب الثاني أَن يقطعه عن شهود الأَحوال- أي عن شهود نفسه فيها متكثرة بها- فإِن الحال محله الصدر والصدر بيت القلب والنفس، فإِذا نزل العطاءُ في الصدر للقلب وثبتت النفس لتأخذ نصيبها من

(30) أي: لا يعتمد على علمه وعمله.

العطاءِ فتتمدح به وتُدِلّ به، وتزهو وتستطيل، وتقرّر إِنّيّتها لأَنها جاهلة ظالمة وهذا مقتضى الجهل والظلم.

قوله: «**والدرجة الثالثة صحّة الاضطرار، والوقوع في يد التقطع الوحداني، والاحتباس في قيد التجريد، وهذا فقر الصوفية** ». وهذه الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أَرباب السلوك، وهي الغاية التى شمَّروا إِليها وحاموا حولها، فإِن الفقر الأَول فقر عن الأَعراض الدنيوية، والفقر الثاني فقر عن رؤية المقامات والأَقوال، وهذا الفقر الثالث فقر عن ملاحظة الموجود[31] الساتر للعبد عن مشاهدة الوجود، فيبقى الوجود الحادث في قبضة الحق ﷻ الهباء المنثور في الهواءِ، يتقلب بتقليبه إِياه، ويسير في شاهد العبد كما هو في الخارج، فتمحو رؤية التوحيد عن العبد شواهد استبداده واستقلاله بأَمر من الأُمور، ولو في النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة، إِلا بإِرادة المريد الحقّ سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته، فيبقى العبد كالكرة الملقاة بين صَولَجانات القضاءِ والقدر، تقلّبها كيف شاءَت بصحة شهادة قيومية مَن له الخلق والأَمر وتفرّده بذلك دون ما سواه.

وهذا الأَمر لا يدْرَك بمجرَّد العلم، ولا يعرفه إِلا من تحقَّق به أَو لاح له منه بارق، وربما ذَهَلَ صاحب هذا المشهد عن الشعور بوجوده لغلبة شهود وجود القيوم عليه، فهناك يَصِحُّ من مثل

(31) الموجود هو «الله» سبحانه وتعالى.

هذا العبد الاضطرار إلى الحي القيوم، وشهد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فقراً تاماً إليه من جهة كونه ربّاً ومن جهة كونه إلهاً معبوداً لا غنى له عنه، كما لا وجود له بغيره[32]. فهذا هو الفقر الأَعلى الذي دارت عليه رحى القوم، بل هو قطب تلك الرحى.

وإنما يصحّ له هذا بمعرفتين لا بدّ منهما: معرفة حقيقة الربوبية والإلَهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر، فإن أعطى هاتين المعرفتين حقَّهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالاً، فما أَغناه حينئذ من فقير، وما أَعزَّه من ذليل، وما أَقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد. فهو الغنيّ بلا مال، القوى بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفيّ بلا عتاد. قد قرَّتْ عينه بالله فقرَّتْ به كلُّ عين، واستغنى بالله فافتقر إليه الأَغنياءُ والملوك.

فمتى اجتمع له هذا الشهود الصحيح إلى شهود الاضطرار في حركاته وسكناته، والفاقة التامة إلى مقلب القلوب ومن بيده أَزِمَّة الاختيار ومن إِذَا شاءَ شيئاً وجب وجوده، وإذا لم يشأ امتنع وجوده، وأَنه لا هادي لمن أضلَّه ولا مضلَّ لمن هداه، وأنه هو الذي يحرك القلوب بالإرادات والجوارح بالأعمال وأنها مدبّرة تحت تسخيره مذلّلة تحت قهره، وأنها أعجز وأضعف من أَن تتحرك بدون مشيئته، وأن مشيئته نافذة فيها كما هي نافذة في حركات الأفلاك

(32) أي لا وجود للعبد بغير ذات الحق، وهذا المقام يقال له عند القوم: الفناء في الله.

والمياه والأَشجار وأَنه حرَّك كلاًّ منها بسبب اقتضى تحريكه وهو خالق السبب المقتضي، وخالق السبب خالق للمسبب، فخالق الإِرادة الحازمة التى هي سبب الحركة والفعل الاختياري خالق لهما، فهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة إِلى مالك الإِرادات وربِّ القلوب ومصرِّفها كيف شاءَ، فما شاءَ أَن يزيغه منها أَزاغه، وما شاءَ أَن يقيمه منها أَقامه: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: 8].

فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع، ومن خرج عنه وانحرف إِلى أَحد الطرفين زاغ قلبه عن الهدى، وعطَّل ملْك الملِك الحقِّ وانفراده بالتصرف والربوبية عن أَوامره، وشرعه وثوابه وعقابه. وحكم هذا الفقير المضطر إِلى خالقه في كل طرفة عين وكل نَفَس أَنه إِن حُرِّك بطاعة أَو نعمة شكرها وقال: هذا من فضل الله ومنِّه وجوده فله الحمد. وإِن حرك بمباديء معصيته صرخ ولجأَ واستغاث وقال: «أَعوذ بك منك »[33]، «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »[34]، «يا مصرف القلوب صرف قلبى على طاعتك»[35].

فإِن تمَّ تحريكه بالمعصية التجأَ التجاءَ أَسير قد أسره عدوّه، وهو يعلم أَنه لا خلاص له من أَسره إِلا بأَن يفكُّه سيده من الأَسر،

(33) مسلم (486)، أبوداود (879).

(34) سبق تخريجه.

(35) سبق تخريجه.

ففكاكه في يد سيده ليس في يده منه شيء البتّة، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فهو في أَسر العدو ناظر إِلى سيّده وهو قادر على تخليصه، قد اشتدَّت ضرورته إِليه، وصار اعتماده كله عليه.

قال سهل[36]: إِنما يكون الالتجاءُ، على معرفة الابتلاء، يعني وعلى قدر الابتلاءِ تكون المعرفة بالمبتلي.

ومن عرف قوله ﷺ: «وأَعُوذ بك منك»، وقام بهذه المعرفة شهوداً وذوقاً، وأَعطاها حقها من العبودية، فهو الفقير حقاً.ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة، فمن زُرِقَ فهمها فَهِمَ سرِ هذا فَهِمَ سرَّ الفقر المحمدي، فهو سبحانه الذي يُنَجّي من قضائه بقضائه، وهو الذي يعيذ بنفسه من نفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه، فالخلق كله له، والأَمر كله له والحكم كله له، وما شاءَ كان وما لم يشأ لم يكن، وما شاءَ لم يستطع أَن يصرفه إِلا مشيئته، وما لم يشأ لم يمكن أَن يجلبه إِلا مشيئته، فلا يأتي بالحسنات إِلا هو، ولا يذهب بالسيئات إِلا هو، ولا يهدي لأَحسن الأَعمال والأَخلاق إِلا هو، ولا يصرف سيئها إِلا هو: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدّ لِفَضْلِهِ**﴾[يونس: 107].

(36) هو أبو محمد سهل بن عبدالله، ابن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رفيع التسترى ﷺ، هو أحد أئمة القوم، ومن أكابر علمائهم المتكلمين فى علوم الاخلاص و الرياضات وعيوب الأفعال، صحب خالدا، و محمد بن سوار، وشاهد ذالنون المصرى عند خروجه الى مكة....ومات سنة 283 هجرى. الطبقات الكبرى للشعرانى/ 168.

والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحة الاضطرار وكمال الفقر والفاقة، ويحول بين العبد وبين رؤية أَعماله وأَحواله والاستغناءِ بها والخروج عن رِبقة العبودية إِلى دعوى ما ليس له. فسبحان من لا يُوصل إِليه إِلا به. ولا يطاع إِلا بمشيئته، ولا ينال ما عنده من الكرامة إِلا بطاعته ولا سبيل إِلى طاعته إِلا بتوفيقه ومعونته، فعاد الأَمر كله إِليه كما ابتدأَ الأَمر كله منه، فهو الأَول والآخر وإِنَّ إِلى ربك المنتهى. ومن وصل إِلى هذا الحال وقع في يد التقطع والتجريد، وأَشرف على مقام التوحيد الخاص، فإِنَّ التوحيد نوعان: عام وخاص، كما أَنَّ الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القرب كذلك خاصية وعامية، فالخاصية ما بذل فيها العامل نصحه وقصده بحيث يوقعها على أَحسن الوجوه وأَكملها، والعامية ما لم يكن كذلك.

فصل [فى تقسيم الغنى إِلى عال وسافل]

ولما كان الفقر إِلى الله ﷻ هو عين الغنى به- فأَفقر الناس إِلى الله أَغناهم به، وأَذلّهم له أَعزّهم، وأَضعفهم بين يديه أَقواهم، وأَجهلهم عند نفسه أَعلمهم بالله، وأَمقتهم لنفسه أَقربهم إِلى مرضاة الله- كأن ذكر الغنى بالله مع الفقر إِليه متلازمين متناسبين. والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال. فالغنى السافل الغنى بالعوارى المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأَنعام والحرث وهذا أَضعف الغنى.

فصل [فى الغنىٰ العالي]

أَما الغنىٰ العالي فقال شيخ الإسلام: «**هو على ثلاث درجات:**

الدرجة الأُولى: غنى القلب، وهو سلامته من السبب، ومسالمته للحكم، وخلاصه من الخصومة.

والدرجة الثانية: غنى النفس، وهو استقامتها على المرغوب، وسلامتها من الحظوظ، وبراءَتها من المراءَاة.

والدرجة الثالثة: الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب: الأُولى شهود ذكره إياك، والثانية: دوام مطالعة أَوليته، والثالثة: الفوز بوجوده ».

فقوله في الدرجة الأُولى وهي غنى القلب: «**إِنَّهُ سلامته من السبب** » أَي من الفقر إِلى السبب، وشهوده والاعتماد عليه والركون إِليه والثقة به، فمن كان معتمداً على سبب غناه واثقاً به لم يطلق عليه اسم الغني[37]، لأَنه فقير إِلى الوسائط، بل لا يسمى صاحبه غنياً إِلا إِذا سلم من علة السبب استغناءً بالمسبِّب[38]،

(37) إطلاق الغني على العبد من باب المجاز، أي: الغني بتدبير الله ﷻ.

(38) أي بذات الحق ﷻ.

بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره، فلذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله ﷻ. فمن كملت له السلامة من علة الأَسباب، ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسالمة- أَي بالانقياد لحكمه- حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته، فإذا وقف العبد على حسن تدبيره واستغنى القلب به لم يتم له الاستغناءُ بمجرد هذا الوقوف، ان لم ينضم إِليه المسالمة للحكم وهو الانقياد له، فإِن المنازعة للحكم إِلى حكم آخر دليل على وجود رعونة الاختيار، وذلك دال على فقر صاحب الاختيار إِلى ذلك الشئ المختار.

ومن كان فقيراً إِلى شيء لم يُرِدْه الله ﷻ، لم يطلق عليه اسم الغني بتدبير الله ﷻ، فلا يتم الغنى بتدبير الرب ﷻ لعبده إِلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره، ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من مخاصمة الرب سبحانه. فإِن منازعة الخلق دليل على فقره إِلى الأَمر الذى وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة[39]، ومن كان فقيراً إِلى حظ من الحظوظ- يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه- لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إِلى وليّه وقيومه ومتولى تدبيره، فمتى سلم العبد من علة فقره إِلى السبب، ومن علة منازعته لأَحكام الله ﷻ ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ،

(39) أي: الحظوظ الدنيوية.

استحق أَن يكون غنيّاً بتدبير مولاه مفوّضاً إليه لا يفتقر قلبه إلى غيره ولا يسخط شيئاً من أَحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربّه فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاة الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنبت، وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ»[40].

فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه، ومحاكمتُه خصمَه إلى أَمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط»[41]، وهذا لتكميل عبوديته. ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أُمر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده.

الأَحكام ثلاثة: **حكم شرعي ديني**: فهذا حقه أَن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذغان والقبول، فإذا تلقى بهذا التسليم والمسألة إقراراً وتصديقاً بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذاً وعملاً، فلا تكون له شهوة تُنازع مرادَ الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له

(40) البخاري (6317)، مسلم (769).

(41) البخاري (6126)، مسلم (6045).

شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شُبهةٍ تُعارض الحقَّ وشهوةٍ تُعارض الأَمرَ، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطن خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقُه تحت الأَمر، واضمحلَّ خوضُه في معرفته بالحق فاطمأن إلى الله معرفة به ومحبة له وعلماً بأَمره وإرادته لمرضاته، فهذا حقُّ الحكم الديني.

الحكم الثاني: **الحكم الكوني القدري**: الذى للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه، فهذا حقه أَن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكونى أَيضاً، فينازع حكم الحق بالحق للحق ويدافع به، وله كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلانى[42]: «الناس إذا دخلوا إلى القضاءِ والقدر أَمسكوا، وأَنا انفتحت لى روزنة فنازعت أَقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر»[43]، فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام

(42) هو محيي الدين أبو محمد عبدالقادر الجيلاني، الفقيه الحنبلي الصوفي، المحدث الأصولي، ولد ﷺ بجيلان (وهى بلاد متفرقة من وراء طبرستان) سنة 470 او 471 هجري، و توفي ببغداد سنة 561 هجري بعد عتمة ليلة السبت عاشر ربيع الاخر، و دفن في رواق مدرسته. له مؤلفات قيّمة منها «الغنية لطالبي طريق الحق»، «الفتح الرباني»أو «فتوح الغيب». الغنية بتحقيق فرج توفيق الوليد/ ج1.

(43) مدارج السالكين (ج1/ 221) باب مقام التوبة، موضوع ركوب سفينة القدر. وانظر نحوه في مجموع الفتاوى في تفسير قول الشيخ «نازعت أقدار الحق....».

وفهمه فتأمل قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه- وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له-: «أتفر من قدر الله؟ فقال: نفر من قدر الله إلى قدره »[44].

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاءَ له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه، فإنه إذا جاءَه قدر من الجوع والعطش أَو البرد، نازعه وترك الانقياد له ومسالمته، ودفع بقدر آخر من الأَكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره، وهكذا إذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بالماءِ والتراب وغيره حتى يطفيء قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأَدوية الدافعة للمرض.

فحق هذا الحكم الكوني أَن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره، حرص على دفع آثاره وموجباته بالأَسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر ونازع الحكم بالحكم، وبهذا أُمر، بل هذا حقيقة الشرع والقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسأَلة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أَو الشرع شاءَ أَو أَبى.

(44) البخاري (5729)، مسلم (2219).

الحكم الثالث: **وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته**، فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة وأن يكون فيه كالميّت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركب في لجّة البحر وعجز عن السباحة وعن سبب يدنيه من النجاة، فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحمكته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإنَّ الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جفَّ القلم بما يلقاه كل عبد، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جلَّ جلاله وصفة الحكمة، وإنَّ القدر قد أصاب مواقعه وحلّ في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأنَّ ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزّته وعلمه وملكه العادل، فهو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فله عليه أكمل حمد وأتمه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره، وإن كان حظ العبد من هذا القدر الذمّ، فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح، لأنه موجب كماله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهو موجب نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه، فاقتسم الربِّ والعبدُ الخطين في هذا القدَر، فكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن، والعبد حظه الذم واللوم والإساءة واستحقاق العقوبة.

ويتبين هذا المقام في أربع آيات. إحداها قوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} الثانية قوله: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الثالثة قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} الرابعة قوله تعالى: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} فمن نزَّل هذه الآيات على هذا الحكم علماً ومعرفةً وقام بموجبها إرادةً وعزماً وتوبةً واستغفاراً، فقد أدّى عبودية الله في هذا الحكم، وهذا قدر زائد على مجرد التسليم والمسالمة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل [في تفسير غنىٰ النفس]

قوله في غنىٰ النفس أنّه: «**استقامتها على المرغوب، وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة** ».

يريد استقامتها به على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وتجنُّبها لمناهيه التي يسخطها ويُبغضها، وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيما لله سبحانه وأمره، وإيمانا به، واحتسابا لثوابه، وخشية من عقابه، لا طلبا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم، وهربا من ذمّهم وازدرائهم، وطلبا للجاه والمنزلة عندهم، فإنَّ هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد عنه، وأنّه أفقر شيء إلى المخلوق. فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضدّه دليل غناها، لأنها إذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعا واختيارا ومحبة وإيمانا واحتسابا، بحيث تصير لذَّتُها وراحتُها ونعيمُها وسرورُها في القيام بعبوديته، كما كان النبي ﷺ يقول: «يا بلال أرحنا بالصلاة»[45].

(45) أبوداود (4985، 4986).

وقال ﷺ: «حبّبَ إِلَيَّ منْ دُنياكُم النسَاءُ والطِّيبُ وجُعِلتْ قُرَّة عَيني فِي الصلاة»[46].

فقرّة العين فوق المحبة، فجعل النساء والطيب مما يحب، وأخبر أن قرّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذّته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة، التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاةٌ له واقتراب منه، فكيف لا تكون قرّة العين، وكيف تقَرُّ عين المحب بسواها.

فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأي فقر يخشى معه، وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه؟ ولا يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها ويصير مجانسا لطبيعة القلب، فتصير بذلك مطمئنة بعد أن كانت لوّامة، وإنما تصير مطمئنة بعد تبادل صفاتها وانقلاب طبعها، لاستغناء القلب بما وصل إليه من نور الحق جلَّ جلاله، فجرى أثر ذلك النور في سمعه وبصره وشعره وبشره وعظمه ولحمه ودمه وسائر مفاصله، وأحاط بجهاته من فوقه وتحته ويمينه ويساره وخلفه وأمامه، وصارت ذاته نورا وصار عمله نورا، وقوله نورا، ومدخله نورا ومخرجه نورا وكان في مبعثه ممن انبهر له نوره فقطع به الجسر.

وإذا وصلت النفس إلى هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإنَّ فقرَها إلى الشهوات هو الموجِبُ

(46) حسن، النسائي (3939، 3940).

لها التقاعد عن المرغوب المطلوب، وأيضا فتقاعدها عن المطلوب بينهما موجِبٌ لفقرها إلى الشهوات، فكل منهما موجب للآخر، وترك الأوامر أقوى لها من افتقارها إلى الشهوات، فإنه بحسب قيام العبد بالأمر تدفع عنه جيوش الشهوة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ [العنكبوت: 45] ، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الله يدافع عن الذِينَ آمنُوا**﴾ [الحج: 38] ، وفي القراءة الأخرى (يدفَعُ).

فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الإيمان وضعفه، فإذا صارت النفس حرّة طيّبة مطمئنّة غنيّة بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب ففاض منه إليها، استقامت بذلك الغنى على الأمر الموهوب، وسلمت به عن الأمر المسخوط وبرئت من المراءاة، ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنا وظاهرا، ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى: ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾ [هود: 112]، وقال سبحانه: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [الأحقاف: 13]. وهذه الاستقامة ترقيها إلى الدرجة الثالثة من الغنى، وهو الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كلِّ ما سواه، وهي أعلى درجات الغنى.

فصل [المرتبة الاولى من الدرجة الثالثة من درجات الغنىٰ]

فأَوَّل هذه الدرجة **أَن تشهد ذكر الله** ﷻ **إياك** قبل ذكرك له، وأَنه تعالى ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدَّر خلقك ورزقك وعملك وإِحسانه إِليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً البتة، وذكرك سبحانه بالإِسلام فوفقك له واختارك له دون مَن خذله، قال تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾ [الحج: 78]

فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط، وإِنما هو الذى أَهلَّك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميل أَولاكَه لم يكن لك إِليه سبيل، ومَن الذي ذكرك سواه باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوّام؟ ومن الذي ذكَّرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها، وأَوقعها فى قلبك، وبعث دواعيك عليها، وأَحيا عزماتِك الصادقة عليها، حتى تُبْتَ إِليه وأَقبلتَ عليه، فذقتَ حلاوة التوبة وبردَها ولذَّتها؟

ثم إنه سبحانه ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك فى كل طرفة عين ونفس نِعَمٌ عديدة، ذكرك بها قبل وجودك، وتعرَّف بها إليك وتحبَّب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده، إذ هو الجواد المفضل المحسنُ لذاته لا لمعاوضة ولا لطلب جزاءٍ منك ولا لحاجة دعته إلى ذلك، كيف وهو الغني الحميد، فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه فاعلم أنه ذكرك بها، فَلْتعظُمْ عندك لِذكره لك بها، فإنه ما حقَّرك مَن ذكَرك بإحسانه، وابتدأَك بمعروفه وتحبَّب إليك بنعمته، هذا كلّه مع غناه عنك.

فإذا شهد العبد ذكرَ ربّه تعالى له، ووصل شاهده إلى قلبه شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غنىً عال لا يشبهه شيء، وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أُستاذه وسيّدُه يَذكُره ولا ينساه، فهو يحصل له- بشعوره بذكر أُستاذه له- غنى زائد على إنعام سيّده عليه وعطاياه السنية له، فهذا هو غني ذكر الله للعبد.

وقد قال ﷺ، فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالى: «مَنْ ذَكَرَنِي في نفسه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُم »[47].

(47) البخارى (7405)، مسلم (2675).

فصل [المرتبة الثانية من الدرجة الثالثة]

الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله ﷻ «**دوام شهود أَوَّليته تعالى**»، وهذا الشهود عند أَرباب السلوك أَعلى مما قبله، والغنى به أَتمّ من الغنى المذكور، لأَنه من مباديء الغنى بالحقيقة، لأَن العبد إِذا فتح الله لقلبه شهود أَوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، وهو الإِلَه الحق الكامل في أَسمائه وصفاته، الغنى عما سواه، الحميد المجيدُ بذاته قبل أَن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده، فهو معبود محمود حى قيوم، له الملك وله الحمد في الأَزل والأَبد، لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الجلال، منعوتاً بنعوت الكمال، وكل شيء سواه فإِنما كان به، وهو تعالى بنفسه ليس بغيره فهو القيوم الذي قيام كل شيء به، ولا حاجة به في قيوميته إِلى غيره بوجه من الوجوه.

فإِذا شهد العبد سبقَه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحقّ، وغاب بهذا عما سواه من المحدَثات، فني في وجوده من لم يكن، كأَنَّه لم يكن وبقي من لم يزل. واضمحلت الممكنات في وجوده الأَزلي الدائم بحيث صارت كالظلال التي يبسطُها ويمدُّها ويقبِضُها، فيستغني العبدُ بهذا المشهد العظيم ويتغذى بها عن فاقاته وحاجاته.

فمن شهد مشهدَ علوِّ الله على خلقه وفوقيّته لعباده واستوائه على عرشه كما أَخبر به أَعرَفُ الخلق وأَعلَمُهم به الصادقُ المصدوق، وتعبَّد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوفَ العبد الذليل بين يدي الملك العزيز. فيشعر بأنَّ كلِمَه وعملَه صاعد إليه معروض عليه مع أَوفى خاصَّته وأَوليائه، فيستحيي أَن يصعد إليه من كلمه وعمله ما يخزيه ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأَمر والمراسيم الإلهية إلى أَقطار العوالم كلَّ وقت بأَنواع التدبير والتصرّف من الإماتة والإحياءِ، والتولية والعزل، والخفض والرفع والعطاءِ والمنع وكشف البلاءِ وإرساله وتقليب الدول ومداولة الأَيام بين الناس، إلى غير ذلك من التصرّف في المملكة التي لا يتصرّف فيها سواه، فمراسيمه نافذة كما يشاءُ ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [السجدة: 5].

فمن أعطى هذا المشهد حقَّه معرفة وعبودية استغنى به. وكذلك من شهِد مشهدَ العلم المحيط الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرة في الأَرض ولا في السمٰوات ولا في قرار البحار ولا تحت أَطباق الجبال، بل أَحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً ثم تعبَّد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره، وإراداته وجميع أَحواله وعزماته وجوارحه علِم أَنَّ حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أَحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء.

وكذلك إذا أشعرَ قلبَه صفةَ سمعِه تبارك وتعالى لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها وسواء عنده من أسرّ القول ومن جهرَ به، لا يشغله جهرُ من جَهَرَ عن سمعه لِصوت مَن أَسرَّ، ولا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا تغلّطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هى عنده كلها كصوت واحد، كما أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ جميعِهم وبعثَهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جلَّ جلاله الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس[48] الظلماء، ويرى تفاصيل خلق الذرَّة الصغيرة ومخّها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها وتيقن أنها بمرأى منه تبارك وتعالى ومشاهدة لا يغيب عنه منها شئ.

وكذلك إذا شهد مشهدَ القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس بما كسبت، وأنّه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه وأنه لكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفَع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضلّ ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

(48) حندس: الليل الشديد الظلمة، المعجم الوسيط، باب الحاء.

وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أنَّ ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يُؤلَّه ويُعبَد، ويصلي له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذّل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده.

فصل [المرتبة الثالثة من الدرجة الثالثة من درجات الغنىٰ بالرَّبّ]

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب جل جلاله «الفوز بوجوده»، هذا الغنى بالغ أعلى درجات الغنى، لأَن الغنى الأَول والثانى كانا من آثار ذكر الله والتوجّه إليه، ففاض على القلب من صدق التوجه أَنوار الصفات المقدسة، واستغنى القلب بذلك، وحصل أَيضاً أَنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أَيضاً.

وأَمّا هذا الغنى الثالث الذي هو الغنى بالحق، فهو من آثار وجود الحقيقة، وهو إِنما يكون بعد ترقّيه من آثار الصفات إِلى آثار وجود الذات، وإِنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد، فهذا أَوله وكماله عند طلوع شمسه فينقطع ضباب الوجود الفانى وتشرق شمس الوجود الباقى فينقطع لها كل ضباب، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور عن عظمة الذات كما كشف له بالنور الذى قبله عن عظمة الصفات، فإِذا كان أَثر من آثار صفات الذات أَو صفات

الأَفعال يغني القلب والنفس فما ظنّك بما تكاشف به الأَرواح من أَنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام؟! فهذا غنىً لا يناله الوصف ولا يدخل تحت الشرح فيستغني العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم، فيا لك من فقر ينقضي ومن غنىً يدوم ومن عيش أَلذّ من المنىٰ، فلا تستعجز نفسك عن البلوغ إلى هذا المقام فبينك وبينه صدق الطلب، وإنما هي عزمة صادقة ونهضة حرّ ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أَن يبيعها بالدّون.

وقد جاءَ في أثر إلهي يقول الله ﷻ: «ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ لِنَفْسِي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم أطلبني تجدني فَإِن وجدتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيءٍ، وَإِنْ فَتَّكَ فَاتَكَ كُل شَيءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[49]، فمن طلب الله بصدق وجده، ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء، فأَصبح حرّاً في غنى ومهابة على وجهه أَنواره وضياؤه، وإن فاته مولاه جلَّ جلاله تباعد ما يرجو وطال عناؤه، ومن وصل إلى هذا الغنى قرّتْ به كل عين لأنه قد قرّتْ عينه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يصل إليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وقد قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ، ومَنْ

(49) ذكره ابن كثير في تفسيره ج5 عند قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) في سورة الذاريات.

أَصْبَحَ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِى رَاغِمَةٌ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِليهِ أَسْرَعُ»[50].

فهذا هو الفقر الحقيقى والغنى الحقيقي، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله ﷻ أكبر همّه، فهذا من باب التنبيه والأَولى.

(50) روى بنحوه الترمذي (2465) وابن ماجة (4105).

فصل [في ذكر كلمات أرباب الطريق في الفقر والغنىٰ]

قال يحيى بن معاذ: الفقر أنْ لا تستغني بشيء غير الله، ورسمه: عدم الأَسباب كلها[51]. قلت: يريد عدمها في الاعتماد عليها والطمأنينة بها، بل تصير عدماً بالنسبة إلى سبق مسببها بالأوَلية، وتفرده بالأَزلية.

وسئل محمد بن عبد الله الفرغاني عن الافتقار إلى الله تعالى والاستغناء به فقال: إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صح الاستغناءُ به، وإذا صح الاستغناءُ به صح الافتقار إليه، فلا يقال أَيهما أَكمل لأَنه لا يتمّ أَحدهما إلا بالآخر[52]. قلت: الاستغناءُ بالله هو عين الفقر إليه، وهما عبارتان عن معنى واحد، لأَنَّ كمال الغنى به هو كمال عبوديته، وحقيقة العبودية كمال الافتقار إليه من كل وجه، وهذا الافتقار هو عين الغنى به، فليس هنا شيئان يطلب تفضيل

(51) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(52) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

أَحدهما على الآخر، وإنما يتوهم كونهما شيئين بحسب المستغنى عنه والمفتقر إليه، فهي حقيقة واحدة ومقام واحد يسمى «غنى» بالنسبة إلى فراغه عن الموجودات الفانية، و»فقراً» بالنسبة إلى قصر همته وجمعها على الله ﷻ ، فهي همّة سافرت عن شيء واتصلت بغيره، فسفرها عن الغير غنى، وسفرها إلى الله فقر، فإذا وصلت إليه استغنت به بكمال فقرها إليه، إذ يصير لها بعد الوصول فقر آخر غير فقرها الأول، وإنما يكمل فقرها بهذا الوصول.

وسئل رويم عن الفقر فقال: إرسال النفس في أَحكام الله تعالى[53]. قلت: إن أَراد الحكم الديني فصحيح، وإن أَراد الحكم الكوني القدري فلا يصحّ هذا الإطلاق، بل لا بدَّ فيه من التفصيل كما تقدم بيانه[54]. وإرسال النفس في أَحكامه التي يسخطها ويبغضها، وإرسالها في أَحكامه التي يجب منازعتها ومدافعتها بأَحكامه خروج عن العبودية.

وقيل: نعت الفقير ثلاثة أَشياءَ: حفظ سرّه، وَأَداءُ فرضه وصيانة فقره[55]. قلت: حفظ السر كتمانه صيانة له من الأَغيار، وغيرةً عليه أَن ينكشف لمن لا يعرفه ولا يؤمن عليه. وَأَداءُ الفرض قيام بحق العبودية وصيانة الفقر حفظه عن لوث مساكنة الأَغيار، وحفظه عن كل سبب يفسده، وكتمانه ما استطاع.

(53) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(54) فليراجع: فصل [في الغنىٰ العالي].

(55) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

وقال إبراهيم بن أَدهم: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر[56].

وسئل يحيى بن معاذ عن الغنى فقال: هو الأَمن بالله ﷻ[57].

سئل أَبو حفص[58]: بماذا ينبغي أَن يقدم الفقير على ربّه؟ فقال: ما ينبغي للفقير أن يقدم على ربّه بشيء سوى فقره[59].

وقال بعضهم: إِنَّ الفقير الصادق ليخشى من الغنيّ حذراً أَن يدخله فيفسد عليه فقره، كما يخشى الغنيّ الحريص من الفقر أَن يدخله فيفسد عليه غناه[60]. وقال بشر بن الحارث: أَفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر[61].

وسئل ابن الجلاءِ: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: إِذا لم يبق عليه بقية منه. فقيل له: كيف ذلك؟ فقال: إِذا كان له فليس له، وإِذا لم يكن له فهو له[62]. قلت: معنى هذا أَنه لا يبقى عليه

(56) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(57) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(58) هو أبو حفص عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري، أحد الائمة السادة، وهو من متكلمي الصوفية. الرسالة القشيرية.

(59) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(60) الرسالة القشيرية، باب الفقر، من كلام ابن الكرنبيّ.

(61) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(62) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

بقية من نفسه، فإذا كان لنفسه فليس لها، بل قد أَضاع حقّها وضيع سعادتها وكمالها. وإذا لم يكن لنفسه، بل كان كله لربّه فقد أحرز كل حظ له وحصل لنفسه سعادتها، فإنه إذا كان لله كان الله له، وإذا لم يكن لله لم يكن الله له فكيف تكون نفسه له؟ فهذا من الذين خسروا أَنفسهم.

وسئل سهل بن عبد الله[63]: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه[64].

وقال ذو النون: دوام الفقر إلى الله مع التخليط أحب إلى من دوام الصفاء مع العجب[65]، والله أعلم.

فجملة نعت الفقير حقاً أَنه المتخلِّي من الدنيا تطرفاً والمتجافي عنها تعففاً. لا يستغنى بها تكثراً، ولا يستكثر منها تملكاً، وإن كان مالكاً لها بهذا الشرط لم تضرّه، بل هو فقير، غناه في فقره، وغنيّ فقره في غناه.. ومن نعته أَيضاً أَن يكون فقيراً من حاله وهو خروجه عن الحال تبرياً، وترك الالتفات إليه تسلياً، وترك مساكنة الأَحوال والرجوع عن موافقتها فلا يستغنى بها اعتماداً عليها ولا يفتقر إليها مساكنة لها. ومن نعته أَنه يعمل على موافقة الله والصبر والرضى والتوكل والإنابة، فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه،

(63) وهو التستري، وقد سبقت ترجمته.

(64) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

(65) الرسالة القشيرية، باب الفقر.

وهو تحصيل مراده من الله، فالفقير خالص بكليته لله ﷻ، ليس لنفسه ولا لهواه في أَحواله حظٌّ ولا نصيب، بل عمله بقيام شاهد الحق وفناءِ شاهد نفسه، قد غيَّبه شاهد الحق عن شاهد نفسه، فهو يريد الله بمراد الله، فمعوَّله على الله، وهمّته لا تقف دون شيء سواه، قد فنى بحبه عن حب ما سواه وبأَمره عن هواه وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه، فهو في وادٍ والناس في وادٍ، خاضع متواضع سليم القلب، سَلِسُ القيادة للحق، سريع القلب إِلى ذكر الله، بريء من الدعاوي لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهد في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إِلى الله، قريب من الناس أَبعد شيء منهم، يأنس بما يستوحشون منه ويستوحش مما يأنسون به، متفرد في طريق طلبه لا تقيّده الرسوم ولا تملكه العوائد ولا يفرح بموجود، لا يأسف على مفقود، مَن جالَسَه قرّت عينه به، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه، قد حمل كله ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلّة وعجز، لا يدخل فيما لا يعنيه ولا يبخل بما لا ينقصه، وصفُه الصدق والعفة والإِيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال، لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضاً ولا مدحة، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرى له على أَحد حقاً ولا يرى له على أَحد فضلاً، مقبل على شأنه مكرم لإِخوانه بخيل بزمانه حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إِلى مطلبه، قد رفع له

علم الحب فشمر إليه، وناداه داعي الإشتياق فأَقبل بكليته عليه، أَجاب منادى المحبة إِذ دعاه حي على الفلاح، ووصل السرى في بيداءِ الطلب، فحمد عند الوصول سراه، وإِنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

[أحبُّ الخلق إلى الله مَن اتَّصف بصفات التي يحبها الله]

وهو سبحانه يحب رسله وعباده المؤمنين ويحبونه، بل لا شيء أَحب إِليهم منه ولا أشوق إليهم من لقائه ولا أَقرَّ لعيونهم من رؤيته ولا أحظى عندهم من قربه، وأَنه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وأنه أفرح بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأَرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها. وأَنه سبحانه لم يكلف عباده إِلا وسعهم وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم فإِنه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه كما هو الواقع، وأَنه سبحانه لا يعاقب أَحداً بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه، وأنه سبحانه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود وصبور شكور يطاع فيشكر، ويعصى فيغفر، لا أَحد أصبر على أَذى سمعه منه، ولا أَحبَّ إِليه المدح منه ولا أحبَّ إليه

العذر منه، ولا أحد أحبَّ إليه الإحسان منه، فهو محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، جميل يحب الجمال، طيِّب يحب كل طيِّب، نظيف يحب النظافة، عليم يحب العلماءَ من عباده، كريم يحب الكرماءَ، قويّ والمؤمن القويّ أَحب إِليه من المؤمن الضعيف، بَرٌّ يحب الأَبرار، عدل يحب أَهل العدل، حي ستير يحب أهل الحياءِ والستر، عفوٌّ غفور يحب من يعفو من عباده ويغفر لهم، صادق يحب الصادقين، رفيق يحب الرفق، جواد يحب الجود وأهله، رحيم يحب الرحماءَ، وتر يحب الوتر، ويحب أَسماءه وصفاته، ويحب المتعبدين له بها، ويحب من يسأَله ويدعوه بها ويحب من يعرفها ويعقلها ويثنى عليه بها ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، ولا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»[66]، وفي حديث آخر صحيح: «لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمْعِهِ مِنَ اللهِ، يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَداً وَهُوَ يَرْزقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»[67]، ولمحبته لأَسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإِحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأَناة والتثبت. ولما كان سبحانه يحب أَسماءَه وصفاته كان

(66) البخارى 4634، مسلم 2760، الترمذي 3530، النسائي 11173.

(67) البخارى 6099، مسلم 2804، النسائي 7708.

أَحب الخلق إِليه من اتصف بالصفات التى يحبها، وأَبغضهم إِليه من اتصف بالصفات التى يكرهها، فإِنما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأَن اتصافه بها ظلم، إِذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروج من اتصف بها من ربقة العبودية ومفارقته لمنصبه ومرتبته، وتعديه طوره وحدَّه، وهذا خلاف ما تقدم من الصفات كالعلم والعدل والرحمة والإِحسان والصبر والشكر فإِنها لا تنافي العبودية، بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته، إِذ المتصَف بها من العبيد لم يتعدَّ طوره ولم يخرج بها من دائرة العبودية.

[سبعة قواعد للسالكين]

[القاعدة الاولى: الانقياد للحق والثبات عليه]

«قاعدة »: كمال العبد وصلاحه يتخلَّف عنه من إحدى جهتين: إما أَن تكون طبيعته يابسة قاسية غير لينة منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها، وإما أن تكون لينة منقادة سَلِسَة القياد، لكنها غير ثابتة على ذلك، بل سريعة الانتقال عنه، كثيرة التقلب، فمتى رزق العبد انقياداً للحق وثباتاً عليه فليبشر، فقد بَشَّرَ بكل خير وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ.

[القاعدة الثانية: الابتلاء تمحيص لحال العبد]

«قاعدة »: إذا ابتلى الله عبده بشيء من أَنواع البلايا والمحن، فإنْ ردَّه ذلك الابتلاء والمحن إلى ربّه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع، وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائباً عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضاً، وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءَته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاءُ والعصمة: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيئاً وَهُوَ شَر لَكُمْ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 216] ، وإن لم يردَّه ذلك البلاءُ إليه، بل شرد قلبه عنه وردّه إلى الخلق وأنساه ذكر ربّه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه فهو علامة شقاوته وإرادة الشرّ به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء ردّه إلى حكم طبيعته وسلطان

شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشَر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسرّاء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضرّاء، فبلية هذا وبالٌ عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

[القاعدة الثالثة: مشاهد الناس فى المعاصي والذنوب]

«قاعدة »: الناس في البلوى التي تجرى عليهم أحكامها بإرادتهم وشهواتهم متفاوتون- بحسب شهودهم لأَسبابها وغايتها أَعظم تفاوت. وجماع ذلك ثمانية مشاهد:

أحدها: شهود السبب الموصل إليها، والغاية المطلوبة منها فقط. وهو شهود الحيوانات، إذ لا تشهد إلا طريق وطرها، وبرد النفس بعد تناولها. وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم في ذلك فرق إلا بدقيق الحيلة في الوصول إليها، وربما زاد غيره من الحيوانات عليه مع تناولها ولذّاتها.

المشهد الثانى: من يشهد مع ذلك مجرد الحكم القدري وجريانه عليه، ولا يجوز شهوده ذلك. وربما رأى أنَّ الحقيقة هو توفية هذا المشهد حقّه، ولا يتمّ له ذلك إلا بالفناءِ عن شهود فعله هو جملة، فيشهد الفاعل فيه غيره والمحرك سواه، فلا ينسب إلى نفسه فعلاً ولا يرى لها إساءَة، ويزعم أن هذا هو التحقيق والتوحيد وربما زاد على ذلك أَنه يشهد نفسه مطيعاً من وجه وإِن كان عاصياً من وجه

آخر فيقول: أَنا مطيع للإرادة والمشيئة وإن كنتُ عاصياً للأمر، فإن كان ممن يرى الأَمر تلبيساً وضبطاً للرعاع عن الخبط والحرمان مع حكم الطبيعة الحيوانية فقد رأى نفسه مطيعاً لا عاصياً، كما قال قائلهم في هذا المعنى.

وأصحاب المشهد الأول أقرب إلى السلامة من هؤلاءِ وخير منهم. وهذا المشهد بعينه هو المشهد الذي يشهده المشركون عبّاد الأصنام ووقفوا عنده كما قالوا: {لَوْ شَاءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُم} [الزخرف: 20]، وقالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ولا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: 148].

المشهد الثالث: مشهد الفعل الكسبي القائم بالعبد فقط ولا يشهد إلا صدوره عنه وقيامه به، ولا يشهد مع ذلك مشيئة الرب له، ولا جريان حكمه القدري به، ولا عزّة الرب في قضائه ونفوذ أَمره، بل قد فني بشهود معصيته بذنبه وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق، إمّا لعدم اتساع قلبه لشهود الأمرين- فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله- مع أنه مؤمن بقضاء الرب وقدره، وأنَّ العبد أقلّ قدراً من أن يحدث فى نفسه ما لم يسبق به مشيئة بارئه وخالقه، وإمّا لإنكاره القضاءَ والقدر جملة وتنزيهه للرب تعالى أن يقدر على العبد شيئاً ثم يلومه عليه.

فأما الأول وإن كان مشهده صحيحاً موجباً له أن لا يزال لائماً لنفسه مزرياً عليها ناسباً للذنب والعيب إليها معترفاً بأنّه

يستحق العقوبة والنكال، وأنَّ الله سبحانه إن عاقبه فهو العادل فيه وأنّه هو الظالم لنفسه، وهذا كله حق لا ريب فيه، لكن صاحبه ضعيف مغلوب مع نفسه غير معان عليها، بل هو معها كالمقهور المخذول، فإنه لم يشهد عزة الرب تعالى في قضائه ونفوذ أمره الكوني ومشيئته، وأنه لو شاء لعصمه وحفظه، وأنه لا معصوم إلا من عصمه ولا محفوظ إلا من حفظه، وأنه هو محل لجريان أقضيته وأقداره، مسوق إليها في سلسلة إرادته وشهوته.

وأنَّ تلك السلسلة طرفها بيد غيره فهو القادر على سوقه فيها إلى ما فيه صلاحه وفلاحه وإلى ما فيه هلاكه وشقاؤه، فهو لغيبته عن هذا المشهد وغلبة شهود المعصية والكسب على قلبه لا يعطى التوحيد حقه ولا الاستعاذة بربّه والاستغاثة به والالتجاء إليه والافتقار والتضرع والابتهال حقه، بحيث يشهد سرّ قوله ﷺ: «وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك».

فإنه سبحانه رب كل شيء وخالق كل شيء، والمستعاذ منه واقع بخلقه ومشيئته، ولو شاءَ لم يكن، فالفرار منه إليه والاستعاذة منه به، ولا ملجأ منه إلا إليه، ولا مهرب منه إلا إليه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

المشهد الرابع: مشهد التوحيد والأمر، فيشهد انفراد الرب بالخلق، ونفوذ مشيئته وتعلق الموجودات بأسرها به، وجريان حكمه على الخليقة وانتهاءها إلى ما سبق لها في علمه وجرى به قلمه،

ويشهد ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وارتباط الجزاءِ بالأعمال واقتضاءها له ارتباط المسبَّبات بأسبابها التي جعلت أسباباً مقتضية لها شرعاً وقدراً وحكمة، فشهوده توحيد الرب تعالى وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه، وذلك يدنيه من عتبة العبودية ويطرحه بالباب فقيراً عاجزاً مسكيناً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وشهوده أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الحمد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير، فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة، وبين شهود التقصير والإساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها.

فهذا هو العبد الموفق المعان الملطوف به، المصنوع له، الذي أُقيم في مقام العبودية وضمن له التوفيق، وهذا هو مشهد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فهو مشهد أَبيهم آدم إذ يقول: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: 23] ، ومشهد أول الرسل نوح إذ يقول: ﴿**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وإلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [هود: 47] ومشهد إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذ يقول: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ**

الدِّينِ﴾[الشعراء: 78- 82] ، وقال في دعائه: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَـدَ آمِنـاً وَاجْنُبْنِـي وَبَنِـي أَن نَعْبُـدَ الأَصْنَـامَ﴾** [إبراهيم: 35] .

المشهد الخامس: ثم أصحاب هذا المشهد فيه قسمان: أحدهما من يشهد تسليط عدوه عليه وفساده إياه وسلسلة الهوى وكبحه إياه بلجام الشهوة، فهو أَسير معه بحيث يسوقه إلى ضرب عنقه وهو مع ذلك ملتفت إلى ربّه وناصره ووليه، عالم بأن نجاته في يديه وناصيته بين يديه وأَنه لو شاءَ طرده عنه وخلَّصه من يديه، فكلما قاده عدوه وكبحه بلجامه أكثر الالتفات إلى وليه وناصره والتضرع إليه والتذلل بين يديه، وكلما أراد اغترابُه وبعدُه عن بابه تذكر عطفه وبره وإحسانه وجوده وكرمه وغناه وقدرته ورأفته ورحمته فانجذبت دواعي قلبه هاربة إليه مترامية(68) على بابه منطرحة على فنائه، كعبد قد شُدَّت يداه إلى عنقه، وقُدِّمَ لتضرب عنقه، وقد استسلم للقتل، فنظر إلى سيده أمامه وتذكر عطفه ورأفته به ووجد فرجة فوثب إليه منها وثبة طرح نفسه بين يديه ومدَّ له عنقه وقال: أنا عبدك ومسكينك، وهذه ناصيتي بين يديك، ولا خلاص لي من هذا العدو إلا بك وإني مغلوب فانتصر.فهذا مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف.

(68) في المطبوع «بترامية» وفي مخطوطة مكتبة الأوقاف الكويتية «مترامية» وهي الصواب.

[المشهد السادس]: وفوقه[69] مشهد أجلَّ منه وأعظم وأخصّ، تخفو عنه العبارة، وإن أشارت اليه بعضَ الإشارة، وتقريبه إلى الفهم بضرب مثل تعبر منه إليه وذلك مثل عبد أخذه سيده بيده وقَدَّمَه ليضرب عنقه بيده، فهو قد أحكم ربطه وشدَّ عينيه وقد أَيقن العبد أنه في قبضته وأنه هو قاتله لا غيره، وقد علم مع ذلك برَّه به ولطفه، ورحمته ورأفته وجوده وكرمه، فهو يناشده بأوصافه ويدخل عليه به، قد ذهب عن وهمه وشهوده كل سبب، فانقطع تعلقه بشيء سواه، فهو معرض عن عدوه الذى كان سبب غضب سيده عليه، قد محا شهوده من قلبه، فهو مقصور النظر إلى سيده وكونه في قبضته ناظر إلى ما يصنعه، منتظر منه ما يقتضيه عطفه وبرّه وكرمه.

ومثل الأول مثل عبد أمسكه عدوه وهو يخنقه للموت وذلك العبد يشهد دنوَّ عدوه له، ويستغيث بسيده وسيده يغيثه ويرحمه، ولكن ما يحصل للثانى فى مشهده ذلك من الأمور العجيبة فوق ما يحصل للأول، وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبه فهو يخنقه خنقة وهو لا يشهد إلا خنقه له، فهو يقول: اخنق خنقك، فأنت تعلم أن قلبى يحبك.

وفي هذا المثل إشارة وكفاية، ومن غلظ حجابه وكتفت طباعه لا ينفعه التصريح فضلاً عن ضرب الأمثال. والله المستعان وعليه التكلان، ولا قوة إلا بالله. فهذه ستة مشاهد.

(69) أي فوق المشهد الخامس.

المشهد السابع: مشهد الحكمة، وهو أن يشهد حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب وإقداره عليه وتهيئتة أسبابه له، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه، ولكنه خلَّى بينه وبينه لحِكَم عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله:

أحدها: أنه يحب التَّوابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب، ثم إذا كان ممن سبقت له العناية قضى له بالتوبة.

الثانى: تعريف العبد عزة الله سبحانه في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه.

الثالث: تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته، وأنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولا بدّ، والشياطين قد مدَّت أيديها إليه تمزِّقه كلَّ ممزَّق.

الرابع: استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه ودعائه والتضرع إليه والابتهال بين يديه.

الخامس: إرادته من عبده تكميل مقام الذّل والانكسار، فإنه متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظن أنه وأنه.. فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلّ وتيقن وتمنى أنه وأنه.

السادس: تعريفه بحقيقة نفسه وأنها الخطالة[70] الجاهلة، وأنَّ كلَّ ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله منَّ به عليه لا من نفسه.

(70) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب. مختار الصحاح، حرف الخاء.

السابع: تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عليه، فإنه لو شاء لعاجلَه على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يصف له معهم عيش.

الثامن: تعريفه أنه لا طريق إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته.

التاسع: تعريفه كرمه في قبول توبته ومعرفته له على ظلمه وإساءَته.

العاشر: إقامة الحجة على عبده، فإنَّ له عليه الحجة البالغة، فإن عذبَّه فبعَدله وببعض حقه عليه، بل اليسير منه.

الحادى عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يجب أن يعامله الله به، فإن الجزاء من جنس العمل، فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه.

الثانى عشر: أن يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم، مع إقامة أمر الله فيهم، فيقيم أمر الله فيهم رحمة لهم، لا قسوة وفظاظة عليهم.

الثالث عشر: أن يخلع صولة الطاعة والإحسان من قلبه، فتتبدَّل برقَّة ورأفة ورحمة.

الرابع عشر: أن يعريه من رداءِ العُجْب بعمله كما قال النبي ﷺ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَشدُّ مِنْهُ، العُجْبَ»[71]، أو كما قال.

الخامس عشر: أن يعريه من لباس الإدلال الذي يصلح للملوك ويلبسه لباسَ الذّل الذي لا يليق بالعبد سواه.

(71) حسن، الهيثمي، مجمع الزوائد 17895، وقال اسناده جيد.

السادس عشر: أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاء والإشفاق والندم.

السابع عشر: أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته، فإن من تربى في العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار العافية.

الثامن عشر: أن يستخرج منه محبته وشكره لربّه إذا تاب إليه ورجع إليه، فإن الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة وإن كان يحصل توبة بغيرها من الطاعات أثر آخر، لكن هذا الأثر الخاص لا يحصل إلا بالتوبة.

التاسع عشر: أنه إذا شهد إساءته وظلمه، واستكثر القليل من نعمة الله لعلمه بأنَّ الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله، فاستقل الكثير من عمله لعلمه بأن الذي يصلح له أن يغسل به نجاسته وذنوبه أضعاف أضعاف ما يفعله، فهو دائماً مستقل لعلمه كائناً ما كان، ولو لم يكن في فوائد الذنب وحكمه إلا هذا وحده لكان كافياً.

العشرون: أنه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده، ويعرفه من أين يدخل عليه، وبماذا يحذر منه، كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء.

الثاني والعشرون: أنه يرفع عنه حجاب الدعوى، ويفتح له طريق الفاقة فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من العبودية، فإنَّ دوام الفقر إلى الله مع التخليط خير من الصفاءِ مع العُجب.

الثالث والعشرون: أن تكون في القلب أَمراض مزمنة لا يشعر بها، فيطلب دواءَها، فيمُنُّ عليه اللطيف الخبير، ويقضي عليه بذنب ظاهر فيجد أَلم مرضه فيحتمي ويشرب الدواءَ النافع فتزول تلك الأمراض التي لم يكن يشعر بها، ومن لم يشعر بهذه اللطيفة فَلِغلظ حجابه.

الرابع والعشرون: أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته أو فرحه وسروره إذا أقبل بقلبه إليه وجمعه عليه وأقامه في طاعته، فيكون التذاذه في ذلك- بعد أن صدر منه ما صدر- بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال، والشديد الخوّف بالأمن، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه.

وإنَّ لطفَ الربِّ وبرَّه وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا، فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربِّه ومحبته.

الخامس والعشرون: امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا، فإنه إذا وقع الذنب، سُلِبَ حلاوة الطاعة والقرب، ووقع في الوحشة. فإن كان ممن يصلح اشتاقت نفسه إلى لذّة تلك المعاملة فحنَّت وأنَّت وتضرَّعت واستعانت بربها ليردَّها إلى ما عوَّدها من بره ولطفه. وإن ركبت غيَّها واستمر إعراضها ولم تحِنَّ إلى تعهدها الأول ومألفها، ولم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربّها علمَ أنها لا تصلح لله، وقد جاء هذا بعينه في أثر إلهي لا أحفظه.[72]

(72) ورد العديد من الاثار في إحياء علوم الدين، ربع المنجيات، باب التوبة، ج4:

السادس والعشرون: أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان أو بعضها، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي لم يكن إنساناً، بل ملكاً، فالذنب من موجبات البَشرية، كما أن النسيان من موجباتها، كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ »[73]، ولا يتم الابتلاءُ والاختبار إلا بذلك. والله أعلم.

السابع والعشرون: أن ينسيه رؤية طاعته ويشغله برؤية ذنبه فلا يزال نصب عينيه، فإن الله إذا أراد بعبد خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة، فإنَّ ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته ومن اللسان ذكره.

وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر

---

1. يروي أنَّ نبيا من أنبياء بني إسرائيل أذنب، فأوحى الله تعالى اليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنك، فقال: يارب أنت أنت، وأنا أنا، وعزتك إن لم تعصمني لأعودنّ، فعصمه الله تعالى. 2. ويروي انه كان في بني إسرائيل شاب عبدَ الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال: إلهي اطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعتُ اليك أتقبلني؟ فسمع قائلا يقول -ولا يرى شخصا-: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت الينا قبلناك.

(73) أحمد 13049، الترمذي 2499، ابن ماجه 4251.

إلى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار.

الثامن والعشرون: أنَّ شهود ذنبه وخطيئته يوجب له أن لا يرى له على أحد فضلاً ولا له على أحد حقاً. فإنه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطأها وذنوبها لا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرَ لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إياها ويذمَّهم على ترك القيام بها، فإنها عنده أخس قدراً وأقلّ قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها، أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجله، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح في نفسه واستراح الناس من عتبه وشكايته فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقرَّ عينه، وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط؟ فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقول العالمين.

التاسع والعشرون: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرَّغ لعيوب الناس، فالأول علامة السعادة، والثانى علامة الشقاوة.

الثلاثون: أنه يوجب له الإحسان إلى الناس والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجّيراه[74]: ربِّ اغفر لي ولوالدي وللمسلمين، والمسلمات، والمؤمنين، والمؤمنات. فإنّه يشهد أنَّ إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أُصيب به، ويحتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم، يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم، وقد قال بعض السلف: إنَّ الله لما عتب على الملائكة في قولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة: 30]، وامتحن هاروت وماروت، جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبني آدم ويدعون الله لهم.

الحادي والثلاثون: أنه يوجب له سعة إبطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه، فإنه إذا شهد نفسه مع ربّه سبحانه مسيئاً خاطئاً مذنباً- مع فرط إحسانه إليه وبرّه وشدّة حاجته إلى ربّه وعدم استغنائه عنه طرفة عين وهذا حاله مع ربّه- فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربَّه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد وهو مع ربّه ليس كذلك، وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغضي عن الاستقصاءِ في طلب حقه قبلهم.

[المشهد الثامن: مشهد الاسماء والصفات: وهو أن يشهد ارتباط الخلق والامر، والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته، وأنَّ

(74) من الهِجِّيرَي: الدأب والعادة. المعجم الوسيط، باب الهاء.

ذلك موجبها ومقتضاها، فأسماؤها الحسنى اقتضت ما اقتضته من التخلية بين العبد وبين الذنب، فإنه الغفّار التواب العفوّ الحليم، وهذه أسماء تطلب آثارها وموجباتها ولابدّ][75].

(75) سقط المشهد الثامن، واستدركناه من مفتاح دار السعادة2/ 772-773. طريق الهجرتين، بتحقيق: فؤاد احمد الزمرلي وفاروق حسن الترك.

[القاعدة الرابعة: انواع الإنابة الى الله تعالى]

«قاعدة »: كثيراً ما يتكرَّر في القرآن ذكر الإنابة والأَمر بها كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: 54]، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[سورة ق: 8]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27]، وقوله عن نبيه داود: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: 24].

والإنابة: الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية، فإن المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:

فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أَنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده وقد حبَّب إليه فعل الطاعات وأَنواع القربات، وهذه الإِنابة مصدرها الرجاءُ ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوساً من أهل القسم الأول وأشرح صدوراً وجانب الرجاءِ ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأَنابوا بالعبادات، ورجاء الأَولين اندرج تحت خوفهم فكانت إِنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاءِ والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه.

ومصدر هذه الإِنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إِليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأَمر والنهى، ولكن إِنابتهم الخاصة إِنما هي من هذه الجهة، وأَما الأَعمال فلم يرزقوا فيها الإِنابة الخاصة وأَملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراءِ فقط إِنابة اضطرار لا إِنابة اختيار كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: 67]، وقوله تعالى: ﴿**فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [العنكبوت: 65].

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أَرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إِلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إِنابتها

بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له.

فأَعلى أَنواع الإِنابة إنابة الروح بجملتها إليه لشدّة المحبة الخالصة الغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم وحين أَنابت إِليه أرواحهم لم يختلف منهم شيء عن الإِنابة، فإِنَّ الأعضاءَ كلها رعيتها، وملكها تبع للروح، فلما أَنابت الروح بذاتها إِليه إنابةَ محبٍ صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه، أَنابت جميع القوى والجوارح، فأَناب القلب أَيضاً بالمحبة والتضرع والذل والانكسار.

وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها. وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت للأمر خاضعة له وداعية فيه مؤثرة إياه على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضاً إلى مولاها ورضى بقضائه وتسليماً لحُكمه.

[القاعدة الخامسة: طريق الوصول إلى الاستقامة]

«قاعدة »: في ذكر طريق يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإنَّ أصل الفساد كله من قِبَلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أَرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسَقيه مرَّة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأَعمال، ولا ريب أنَّ دفع الخواطر أَيسر من دفع الإِرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزاً أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها، وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكَّنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟

قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثانى: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذى يلقي للطائر ليصاد به، فاعلم أنَّ كلَّ خاطر منها فهو حبَّةٌ في فخٍّ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدّها من كل وجه، وما اجتمعا في قلبٍ إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأَخرجتها واستوطنت مكانها، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحسَّ بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاهَ في ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلاً، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذَّب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأَماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا النَّدامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها وأفسدت عليه رعيّته وأَلقته في الأسر الطويل.

وكما أنَّ هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الايمانية هي أصل الخير كله، فإنَّ أرض القلب اذا بذرَ فيها خواطر الايمان والخشية والمحبة والانابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرَّة بعد مرَّة، و تعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه بالخيرات، و استعملت جوارحه في الطاعات، واستقرَّ بها الملك في سلطانه واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجلُّ عملها. وهذا نافع لصاحبه بشرطين: أحدها: أن لا يترك واجباً ولا سنةً.

و الثاني: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتمّ ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية فيفرّغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منها معاً كان خاسراً، فلا بدَّ من التفطن لهذا.

ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على إلقاء الخواطر وإزالتها جملة فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات فظنوها تحقيقاً وفتحاً رحمانياً، وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات وفتوحات شيطانية، والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة والعقل المؤيد بنور النبوة. والله المستعان.

فصل [صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته]

صدق التأهب للقاءِ الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإنَّ مَن استعدَّ للقاءِ الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وجمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبتَ قلبه إلى ربّه تعالى، وعكفت همتُه على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همةٌ أُخرى وعلوماً أُخَر، وولد ولادة أُخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أَن كان في بطن أُمّه، فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة، وكما كان بطن أُمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أُمه بارزاً إلى هذه الدار، وهذا معنى ما يذكر عن المسيح أَنه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماءِ حتى تولدوا مرتين».

ولما كان أَكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوَّروها- فضلاً عن أن يصدِّقوا بها- فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير

أَم كيف يولد القلب، لم يكن لهم إليها همة ولا عزيمة، إذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدقه؟ ولكن إذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك وعلم أنَّه لم يولد قلبه بعد.

والمقصود أَنَّ صدق التأَهب للقاءِ الله هو مفتاح جميع الأَعمال الصالحة والأَحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإِنابة والمحبة والرجاءِ والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأَهب والاستعداد للقاءِ الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إلهَ غيره ولا ربَّ سواه.

[الطريق الى الله واحد]

والمقصود أنَّ الطريق إلى الله تعالى واحد، فإنّه الحق المبين والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل، فالباطل متعدد، وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أَنَّ الطريق إلى الله متعددة متنوعة جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمة منه وفضلاً، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق. وكشف ذلك وإيضاحه أنَّ الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضى الله، وما يرضيه متعدد متنوع فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأَزمان والأَماكن والأَشخاص والأَحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله سبحانه لرحمته، وحكمته كثيرة متنوعة جداً لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأَذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن

لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئٍ إلى ربّه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: « الأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلات دينهم واحد »[76]. فأولاد العلات: أن يكون الأب واحدا والأمهات متعددة، فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد، وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها إلى أب واحد كلها.

(76) البخارى (3442)، مسلم (2365).

[القاعدة السادسة: لا بدَّ للسائر إلى الله من قوتين: علمية وعملية]

«قاعدة »: السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوَّته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعطبها. وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السَّيْرُ هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر. وكذلك السائر إلى ربّه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر وهو

أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافراً في الطريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأُخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر.

وكلما سكنت نفسه من كلال[77] السير ومواصلة الشدّ والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمّةً، فهو يقول: يا نفس أَبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي فلا تنقطعي في الطريق دون الوصل فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرتَ وواصلتَ السيرَ وصلتَ حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأَنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإنَّ الدنيا كلها لساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة.

فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهَلاك والعطب لو كنت تعلمين، فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أَمامها من أحبابها، وما لديهم من الإِكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاءِ، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراءها في الطلب. ولا بدَّ لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أَيها شاءَت. وليجعل حديث الأحبة وشأنهم حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم

(77) كلال: أعيا، تعب. مختار الصحاح والمعجم الوسيط، باب حرف الكاف.

هاديها ودليلها، وصدق وِدادِهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءَها، ولا يوحشنَّه انفراده في طريق سفره ولا يغتر بكثرة المنقطعين فألَمُ انقطاعه وبِعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه الملتقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرَّة عينه إذ ذاك ويا فرحته إذ يقول: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس: 26- 27].

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطءِ سيرها، فكلما أدمنَ على السير وواظب عليه غدواً ورواحاً وسحراً، قرُبَ من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أُنساً وكثافته لطافة ودرنه طهارة.

فصل [فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية]

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أَغلبَ القوتين عليه، ويكون ضعيفاً في القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أَكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلبَ القوتين عليه وتقتضى هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجِدّ والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأَعمال والأقوال والمقامات كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداءُ هذا من جهله وداءُ الأَول من فساد إرادته وضعف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده، فتارة يعبده بذوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائناً ما كان. وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد، فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه، ولا يقبل من أحد ديناً سواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التى تعرَّف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له.

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله تعالى ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوّته، فإنَّ القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاءَ الله لأَزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد، والوقت كما قيل سيف فإن قطعته وإلا قطعك.

فإذا كان السير ضعيفاً والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فإنّه جهد البلاء ودرك الشقاءِ وسوء القضاء وشماتة الأعداءِ إلا أن يتداركه الله برحمة منه

من حيث لا يحتسب، فيأخذ بيده ويخلصه من أَيدي القواطع.
والله ولي التوفيق.

[القاعدة السابعة: المسافر نوعان]

العبد من حين استقرت قدمه في هذا الدار فهو مسافر فيها إلى ربّه، ومدَّةُ سفره هي عمره الذي كتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربّه تعالى، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر. فالكيّس الفَطِن هو الذي يجعل كل مرحلة نصبَ عينيه فيهتمُّ بقطعها سالماً غانماً، فإذا قطعها جعل الأُخرى نصبَ عينيه، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ويمتد أمله ويحضر بالتسويف، والوعد، والتأخير، والمطل.

ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

قسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاءِ، فكلما قطعوا مرحلة منها قربوا من تلك الدار وبعَدوا عن ربّهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداة رسله وأَوليائه ودينه والسعي في إِطفاءِ نوره وإِبطال دعوته وإِقامة دعوة غيرها. القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام. وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

فأما الظالم لنفسه: فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها، وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحركت جوارحه طالبة لها ساعية فيها، فإذا زاحمها حقوق ربّه فتارة وتارة، فمرّة يأخذ بالرخصة ومرّة بالعزيمة، ومرّة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما، فإذا ورد القيامة ميَّز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراءِ ذلك لا يعدم عباده منه فضله وعدله.

وأما المقتصدون: فأدّوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولم ينقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجّار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها مشتغلاً بها قائماً بأعيانها مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأُخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول فهو كذلك سائر يومه، فإذا جاءَ الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر فيقوم إلى عَدَّانه[78] وظيفته فإذا جاء الصوم الواجب

(78) العدّان: زمان الشيء وعهده. المعجم الوسيط، باب حرف العين.

يقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات: فهم نوعان: أبرار ومقرَّبون.

وهؤلاء الأَصناف الثلاثة هم أَهل اليمين، وهم المقتصدون والأَبرار والمقرَّبون. وأَما الظالم لنفسه فليس من أَصحاب اليمين عند الإِطلاق[79] وإِن كان مآله إلى أصحاب اليمين كما أنه لا يسمىٰ مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أَخْذ الحق منه.

وأما الاشقياء: فقطعوا تلك المراحل سائرين الى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه ومعاداة كتبه ورسله ما بعثوا، ومعاداة أوليائه والصدّ عن سبيله، ومحاربة من يدعو الى دينه، و مقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده، فقطع هؤلاء الاشقياء مراحل أعمارهم في صدّ ما يحبه الله و يرضاه.

وأما السائرون إليه فظالمهم: قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذّاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله، فهذا حال المسلم.

(79) مراده والله اعلم: مؤمناً كامل الايمان، لأن الشيء إذا أطلق فالمراد منه الكامل.

وأما الأبرار المقتصدون: فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمر الله، فإذا أدّى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصّف الأول من المسجد، فأدّى فريضته كما أمر، مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب. فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلّة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها.

قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وحبّبت إليه لقاء الله ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله، فهو مغموم مهموم كأنّه في سجن حتى تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرّة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة. هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن لا يُخلّون منها بشيء ما أمكنهم، فيقصدون من الوضوء أكمله، ومن الوقت أوله، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره.

ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة. فإذا كان قبل غروب الشمس توافروا على أذكار المساء الواردة في السُنَّة نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار لا يُخلّون بها أبدا، فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قسمها بين عباده.

فإذا أخذوا مضاجعهم أتَوا بأذكار النوم والواردة في السنة، وهي كثيرة تبلغ نحواً من أربعين، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه. وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله، فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله.

فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى وتشييع الجنائز وإجابة الدعوة والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال وزيارتهم وتفقدهم، وقائم بحقوق أهله وعياله، فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر، فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره فهذا وظيفته دائما.

وأما السابقون المقربون: فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة. ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم(80).

(80) نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون المؤلف قد لحق بهم.

فنبأ القوم عجيب، وأمرهم خفي إلا على من له مشاركة مع القوم، فإنه يطلع من حالهم على ما يريه إياه القدر المشترك.

وجملة أمرهم: أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وعُمِرتْ بمحبّته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسَرَتْ المحبة في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب.

قد أنساهم حبه ذكر غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه. وقد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلّل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره.

فصل [مايفعله السابق المقرب منذ استيقاظه]

فإذا استيقظ أحدهم وقد بدر إلى قلبه هذا الشأن فأَول ما يجري على لسانه ذكر محبوبه والتوجّه إليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به أَن لا يخلي بينه وبين نفسه وأَن لا يكله إليها فيكله إلى ضَعَة وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأه كلاءَة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فأَول ما يبدأُ به «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أَماتنا وإليه النشور »[81]، متدبّراً لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأَن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت وأعاده إلى حاله سوياً سليماً محفوظاً مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات المهلكات والتي هو غرض وهدف لسهامها كلها تقصده بالهلاك أو الأذى، والتي من بعضها أرواح شياطين الإنس والجن، فإنها تلتقي بروحه إذا نام فتقصد إهلاكه وأذاه، فلولا أَنَّ الله سبحانه يدفع عنه لما سلم.

(81) البخاري (6312)، مسلم (2711).

فإذا تصوَّر العبد ذلك فقال: «الْحَمْدُ للهِ» كان حمده أَبلغ وأَكمل من حمد الغافل عن ذلك، ثم تفكر في أَنَّ الذي أَعاده بعد هذه الإماتة حياً سليماً قادراً على أَن يعيده بعد موتته الكبرى حياً كما كان، ولهذا يقول بعدها: «وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»، ثم يقول: «لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالحَمْدُ للهِ وسُبْحَانَ الله وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ»[82].

ثم يدعو ويتضرَّع، ثم يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه، ثم يصلي ما كتب الله له صلاة محبٍّ ناصح لمحبوبه متذلل منكسر بين يديه، لا صلاة مدِلٍّ بها عليه، يرى من أَعظم نِعَم محبوبه عليه أَن أَقامه وأَنام غيره، واستزاره وطرد غيره، وأهلَّه وحَرَمَ غيره، فهو يزداد بذلك محبة إلى محبته، ويرى أَنَّ قرَّة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذّته وسروره في تلك الصلاة، فهو يتمنى طول ليله ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى المحب الفائز بوصول محبوبه ذلك.

فهو يتملَّق فيها مولاه تملُّق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطياً لكل آية حظها من العبودية، فتجذب قلبه وروحه إليه آيات المحبة والوداد، والآيات التي فيها الأَسماءُ والصفات، والآيات التي تعرف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم، وتطيِّبَ له السيرَ آياتُ الرجاءِ والرحمة وسعة البر والمغفرة،

(82) البخارى (1154).

فتكون له بمنزلة الحادى الذى يطيّب له السيرَ ويهوّنه عليه، وتقلقُه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين إلى سواه، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه. فتأَمَّلْ هذه الثلاثة وتفقَّهْ فيها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبالجملة فيشاهد المتكلمَ سبحانه وقد تجلى في كلامه ويعطي كل آية حظَّها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها، ثم شأن آخر لو فطن له العبد لعلم أَنه كان قبل يلعب.

فوا أَسفاه وواحسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أَطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزاً، وموته كمداً، ومعاده حسرةً، وأسفاً. اللَّهم ولك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فصل

فإذا صلى[83] ما كتب الله جلس مطرقاً بين يدي ربّه تعالى هيبة له وإجلالاً، واستغفره استغفار مَن قد تيقن أَنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه. فإذا قضى من الاستغفار وطرا وكان عليه بعد ليل اضطجع على شقه الأَيمن مُجِمّاً نفسه مريحاً لها مقوّياً على أَداءِ وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطاً بجدِّه وهمَّتِه كأنه لم يزل طول ليلته لم يعمل شيئاً، فهو يريد أَن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلي السُّنَّة [84]ويبتهل إلى الله بينها وبين الفريضة[85]، فإِنَّ لذلك الوقت شأناً يعرِفُه من عرَفَه، ويكثر فيه من قول: «يَا حَي، يَا قيُّوم، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ» فلهذا الذِّكر في هذا الموطن تأثير عجيب، ثم ينهض إلى صلاة الصبح قاصداً الصف الأول عن يمين الإِمام أو خلف قفاه،

(83) المراد منها قيام الليل.

(84) وذلك قبل الصبح.

(85) أي يدعو بين الأذان والإقامة، لقوله ﷺ: الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة. أخرجه أحمد (12174)، الترمذي (212)، ابو داود (521)، وإسناده صحيح.

فإن فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن فإن للقرب من الإمام تأثيراً في سرِّ الصلاة، ولهذا القرب تأثير في صلاة الفجر خاصة يعرفه من عرَف قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾ [الإسراء: 78] .

قيل: يشهد الله ﷻ وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهده ملائكة الليل والنهار.

فصل [فيما يفعله بعد فراغه من صلاة الصبح]

فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكليته على ذكر الله والتوجه إليه بالأذكار التي شرعت أول النهار فيجعلها ورداً له لا يخلّ بها أبداً، ثم يزيد عليها ما شاءَ من الأذكار[86] الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت فإن شاءَ ركع ركعتي الضحى وزاد ما شاءَ، وإن شاءَ قام من غير ركوع ثم يذهب متضرعاً إلى ربّه سائلاً له أن يكون ضامناً عليه متصرفاً في مرضاته بقيَّة يومه، فلا ينقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربّه، وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قَلَبَهُ عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب. وبالجملة فيقف عند أول الداعي إلى فعله، فيفتش ويستخرج منه منفذاً ومسلكاً يسلك به الى ربّه فينقلب في حقه عبادة وقربة.

(86) ومما يفعله الدعاء بعد فراغه من صلاة الصبح، لقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى:(فإذا فرغت) أي: من الصلاة (فانصب) أي: في الدعاء. ينظر تفسير ابن كثير ج5، ص519، سورة الانشراح. وقوله ﷺ: يا معاذ أني احبك فلا تدعن دبر كل صلاة ان تقول: اللهم اعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. أخرجه أحمد (22119)، ابو داود (1422)، النسائي (1304). ودبر كل صلاة، أي: بعد السلام لقوله ﷺ: من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين...الى آخر الحديث (مسلم1352).

وشتّان كم بين هذا وبين مَن إذا عرض له أمر من أوامر الرب لا بدَّ له من فعله وفتَّش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه، ففعله لأجل ذلك وجعل الأمر طريقاً له ومنفذاً لمقصده، فسبحان من فاوت بين النفوس إلى هذا الحد والغاية، فهذا عباداته عادات، والأول عاداته عبادات.

فإذا جاءَ فرض الظهر بادر إليه مكملاً له ناصحاً فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئاً ما، فهو لا يُبقي مجهوداً، بل يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله ليقع موقعاً من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه.

أفلا يستحي العبد من ربّه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في عمله هكذا، وهو يرى المحبين في أشغال محبوبيهم من الخلق كيف يجتهدون في إيقاعها على أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبُّه من الخلق، فلا أقلّ من أن يكون مع ربّه بهذه المنزلة، ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربّه وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نُصْحَه ولم يدع من حسنه شيئاً إلا فعله.

وبالجملة فهذا حال هذا العبد مع ربّه في جميع أعماله، فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه، فهو أبداً يستغفر الله عقيب كل عمل وكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثاً، وقال تعالى: ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: 18] .

قال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم[87]. وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة: 199]، فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة، وشرع للمتوضيء أن يقول بعد وضوئه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المتَطَهِّرِين»[88]، فهذه توبة بعد الوضوءِ، وتوبة بعد الحج، وتوبة بعد الصلاة، وتوبة بعد قيام الليل. فصاحب هذا المقام مضطرّ إلى التوبة والاستغفار كما تبين، فهو لا يزال مستغفراً تائباً، وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره.

(87) تفسير الطبري ج16، ص 342، تفسير سورة الذاريات.

(88) الترمذي (55).

فصل [كمال العبودية]

وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله ﷻ في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربّه في محبته ما أَحبه، وبذل الجهد في فعله وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا للأَمَّارة ولا للَّوامة.

فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل، وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأَسماءِ والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاءَ به الرسول ﷺ لا مخالف له، فإنه بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالَم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، طريق سهل قريب موصل، طريق آمن أَكثر السالكين في غفلة عنه، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم ومعرفة تامة به وإِقداماً على رد الباطل المخالف له، ولو قاله من قاله، وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظَّمين

عندهم، ثم لإحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم ولم يتجاوزوها إلى غيرها فصارت حجاباً لهم وأَي حجاب.

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل، فقد أُوتي خيراً كثيراً ولا يخاف عليه إلا من ضعف همته، فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقاً، واحد الناس بزمانه، لا يلحق شأْوه[89] ولا يشق غباره فشتان ما بين من يتلقى أَحواله وواراداته عن الأَسماء والصفات وبين من يتلقاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرَّد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئاً قال هذا هو الحق، فالسير إلى الله من طريق الأَسماءِ والصفات شأنه عجب، وفتحه عجب صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾ [النمل:88] .

وليس العجب من سائر في ليله ونهاره وهو في السُّرى لم يبرح من مكانه، وإنما العجب من ساكن لا يرى عليه أَثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز، فسائر قد ركبته نفسه فهو حاملها سائر ملبوك[90] بها، يعاقبها وتعاقبه ويجرّها وتهرب منه، ويخطو بها خطوة إلى أَمامه فتجذبه خطوتين إلى ورائه، فهو معها في جهد وهي معه

(89) الشَّأو: الغاية والأمد. مختار الصحاح.

(90) من «لبِكَ»، أي: اختلط والتبس. المعجم الوسيط، باب اللام.

كذلك، وسائر قد ركب نفسه وملك عنانها فهو يسوقها كيف شاءَ وأَين شاءَ لا تلتوي عليه ولا تنجذب ولا تهرب منه، بل هي معه كالأسير الضعيف في يد مالكه وآسِره، وكالدابة الريّضة المنقادة في يد سائسها وراكبها، فهي منقادة معه حيث قادها، فإِذا رام التقدم جمزت به وأَسرعت، فإذا أَرسلها سارت به وجرت في الحلبة إلى الغاية ولا يردّها شيء فتسير به وهو ساكن على ظهرها، ليس كالذي نزل عنها فهو يجرّها بلجامها ويشحَطها ولا تنشحط، فشتّان ما بين المسافرين، فتأَملْ هذا المثل فإِنه مطابق لحال السائرين المذكورين، والله يختص برحمته من يشاءُ.

فصل [السابقون بالخيرات سلَّموا اليه سبحانه التدبير]

ومن شأن القوم أَن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذى يخالف تدبير ربهم تعالى واختياره، بل قد سلموا إليه سبحانه التدبير كله، فلا يزاحم تدبيرهم تدبيره ولا اختيارهم اختياره، لتيقنهم أَنه الملك القاهر القابض على نواصي الخلق المتولي لتدبير أَمر العالم كله، وتيقنهم مع ذلك أَنه الحكيم في أَفعاله الذى لا تخرج أَفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة، فلم يدخلوا أَنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفه أُمور عباده بِلَو كان كذا وكذا، ولا بعسى ولعل ولا بِلَيْتَ، بل ربهم تعالى أَجلّ وأَعظم في قلوبهم من أَن يعترضوا عليه أَو يتسخطوا تدبيره أو يتمنوا سواه، وهم أَعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أَن يتهموه في تدبيره أَو يظنوا به الإخلال بمقتضى حكمته وعدله، بل هو ناظر بعين قلبه إلى باريء الأَشياء وفاطرها، ناظر إلى إتقان صنعه، مشاهد لحكمته فيه وإن لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم.

والمقصود أنَّ شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل هِمهم كله في إقامة حقِّه عليهم، وأما التّدبير العام والخاص فقد سلموه لولي الأمر كله ومالكه الفعّال لما يريد.

هذا ما يجري على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني، فإذا جاء الامر جاءت الارادة والاختيار والجد والسعي واستفراغ الفكر وبذل الجهد، فهو قوي حي فعّال يشاهد عبودية مولاه في أمره، فهو متحرّك فيها بظاهره وباطنه، قد أخرج مقدوره من القوة الى الفعل، وهو مع ذلك مستعين بربّه قائم بحوله و قوَّته، ملاحظ لضعفه وعجزه، قد تحقق بمعنى «إياك نعبد و إياك نستعين »، فهو ناظر بقلبه الى مولاه الذي حرَّكه، مستعين به في أن يوفقه لما يحبّه ويرضاه، عينُه في كل لحظة شاخصة إلى حقّه المتوجه عليه لربّه ليؤديه في وقته على أكمل أحواله، فإذا وردت عليهم أقداره التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية. وهم فيها على مراتب ثلاثة:

إحداها: الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه، وهذا نشأ من مشاهدتهم لِلُطفه فيها وبرِّه وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها سبباً لمصالحهم، وشوقهم بها إلى حبّه ورضوانه، ولهم من ذلك مشاهد أُخر لا تسعها العبارة وهي فتحٌ من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله.

المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره على النعم وهذا فوق الرضا عنه بها ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأَهل هذا الشأن.

والثالثة: للمقتصدين، وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته من التسخط والتشكي، واستبطاءِ الفرَج، واليأس من الرَّوح، والجزَع الذي لا يفيد إلا فوات الأَجر وتضاعف المصيبة.

فالصبر أول منازل الإيمان ودرجاته وأوسطها وآخرها، فإنَّ صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته، بل الصبر معه وبه يتحقق الرضا والشكر، ولا تصور ولا تحقق لهما دونه، وهكذا كل مقام مع الذي فوقه، كالتوكل مع الرضا، وكالخوف والرجاء مع الحب، فإنَّ المقام لا ينعدم بالترقي إلى الآخر ولو عدم لخلفه ضدُّه، وذلك رجوع إلى نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة، وإنما يندرج حكمه في المقام الذي أَعلى منه فيصير الحكم له كما يندرج مقام التوكل في مقام المحبة والرضا، وليس هذا كمنازل سير الأَبدان الذي إذا قطع منها منزلاً خلَّفه وراءَ ظهره، واستقبل المنزل الآخر معرضاً عن الأَول بارتحاله، بل هذا كمنزلة التاجر الذي كلما باع شيئاً من ماله وربح فيه، ثم باع الثاني وربح فقد ربح بهما معاً، وهكذا أبداً يكون ربحه في كل صفقة متضاعفاً بانضمامه إلى ما قبله، فالربح الأول اندرج في الثاني ولم يعدم.

فتأمل هذا الموضوع وأعطه حقه يزلْ عنك ما يعرض من الغلط في علل المقامات، وتعلم أنَّ دعوى المدعي أنها من منازل العوام ودعوى أنها معلولة غلط من وجهين:

أحدهما: أن أعلى المقامات مقرون بأدناها مصاحب له كما تقدم، متضمن له تَضَمُّنَ الكل لجزئه، أو مستلزم له استلزام الملزوم

للازمه لا ينفكُّ عنه أبداً، ولكن لإندراجه فيه وانطواء حكمه تحته يصير المشهد والحكم للعالي.

الوجه الثاني: أنَّ تلك المقامات والمنازل إنما هي منازل العوام وتعرض لها العلل بحسب متعلقاتها وغاياتها، فإن كان متعلقها وغاياتها بريئاً من شوائب العلل وهو أجلُّ متعلق وأعظمه فلا علّة فيها بحال، وهي من منازل الخواص حينئذ. وإن كان متعلقها حظاً للعبد أو أمراً مشوباً بحظه فهي معلولة من جهة تعلقها بحظه.

[حقيقة المحبة الصادقة]

قالوا: المحبة الخالصة الصادقة حقيقتها أنها نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب[91]، وإذا احترق ما سوى مراده عدم وذهب أثره، فإذا بقي في القلب شيء من سوى مراده لم تكن المحبة تامة ولا صادقة، بل هي محبة مشوبة بغيرها، فالمحب الصادق ليس في قلبه سوى مراد محبوبه حتى ينازعه ويدافعه، والآخر في قلبه بقية لغير المحبوب فهو جاهد على إخراجها وإعدامها.

قالوا: وأيضاً فالواردات الإلهية ترد على القلوب على قدر استعدادها وقبولها، فإذا صادفت القلب فارغاً خالياً من العوارض والمنازعات ودواعي الطبع والهوى ملأَته على قدر فراغه، وإذا امتلأَ منها لم يبق لأضدادها وأعدائها فيه مسلك، وإذا صادفت فيه موضعاً مشغولاً بغيرهم من الأَغيار لم يساكن ذلك الموضع فيدخل الضدّ والعدو من تلك الثلمة.

(91) الرسالة القشيرية، باب المحبة.

قالوا: وأيضاً فدواعى الطبع وإرادات النفس وشهواتها مصدرها إما جهل وإما ضعف، فإنها لا تصدر إلا من جهل العبد بآثارها وموجباتها، أَو يكون عالماً بذلك، لكن فيه ضعف وعجز يمنعه عن محوها من قلبه بالكلية، وما كان سببه جهلاً أو عجزاً لا يكون كمالاً ولا مستلزماً لكمال، وأَما القلب الخالى منها ومن الاشتغال بدفعها فقلب شريف قوي علوي رفيع.

قالوا: وأيضاً فهذه الإرادات والدواعى لا تسير العبد، بل إما أن تنكسه إن أجابها، وإما أن تعوِّقه وتوقِّفه إن اشتغل بمدافعتها، وأَما إرادات القلب السليم منها والنفس المطمئنة بربها، فكل إرادة منها تسير به مراحل على مهلة، فهو يسير رويداً وقد سبق السعادة.

قالوا: وأيضاً فالنفوس ثلاثة: أَمارة، ولوامة، ومطمئنة.

والنفس الأَمارة هي المطيعة لدواعي طباعها وشهواتها، فمبادئ كونها أمارة هى تلك الدواعى والإرادات فتستحكم فتصير عزمات، ثم توجب الأفعال. فمبدأُ صفة الذَّم فيها تلك الدواعي. وأما النفس المطمئنة فهي التي عدمت هذه المبادئ فعدمت غاياتها، فكيف تكون مبادئ النفس الأَمارة مما يوجب لها مزية على النفس المطمئنة؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة أيضاً لقولها.

والحقّ أن كِلا الطائفتين على صواب من القول، لكن كل فرقة لحظت غير ملحظ الفرقة الأُخرى، فكأَنهما لم يتواردا على محل واحد، بل الفرقة الأُولى نظرت إلى نهاية سير المجاهد لنفسه وإرادته

وما ترتب له عليها من الأَحوال والمقامات فأَوجب لها شهود نهايته رجحانه فحكمت بترجيحه واستحلت بتفضيله.

والفرقة الثانية نظرت إلى بدايته في شأنه ذلك ونهاية النفس المطمئنة فأَوجب لها شهود الأَمرين الحكم بترجيح القلب الخالي من تلك الدواعي ومجاهدتها، وكل واحدة من الطائفتين فقد أَدْلَتْ بحجج لا تمانع، وأَتَتْ ببينات لا ترَّد ولا تدافَع.

وفصل الخطاب في هذه المسألة يظهر بمسأَلة يرتضع معها من لبانها ويخرج من مشكاتها. وهي أنَّ العبد إذا كان له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه إلى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه هل يعود إلى مثل ما كان؟ أو لا يعود، بل إن رجع رجع إلى أنزل من مقامه و أنقص من رتبته؟ أو يعود خيرا مما كان؟

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «للهُ أَشدُّ فرحاً بتوبة عبده من أحدكم ضلَّ راحلتَه»[92].

فرح الرب سبحانه هذا الفرح العظيم بتوبة عبده إذا تاب إليه هو من ملزومات محبته ولوازمها، أعني كونه محباً لعباده المؤمنين، محبوباً لهم، وإنما خلق خلقه لعبادته المتضمنة لكمال محبته والخضوع له، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

(92) البخاري (6308)، مسلم (2675).

فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد، أو يحب أن يحمَد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا أحد أحبَّ إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه»[93].

فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثنى على نفسه، ويحمد نفسه، ويقدِّس نفسه، ويحب من يحبه ويحمده ويثنى عليه. بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثنى عليه.

ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه لأنه ينقص هذه المحبة، ويجعلها بينه وبين من أشرك به ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة والتسوية فيها بينه وبين غيره، ولا ريب أنَّ هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التي ينقص بها من عينه وتنحط بها مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين، فكيف يحتمل رب العالمين أن يُشرَك بينه وبين غيره في المحبة، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً للهِ**﴾ [البقرة: 165] ، فأخبر سبحانه أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله فقد اتخذه نداً، وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم: ﴿**تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: 97- 98].

(93) حسن، البخاري في الادب المفرد بلفظ مختلف (342، 859).

و أنَّ الله سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان:02] . وكرَّمهم وفضَّلهم على كثير ممن خلق فقال: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحملناهم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: 70] ، وقال لصالحيهم وصفوتهم: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: 33] . وقال تعالى لموسى: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه: 41]، واتخذ منهم الخليلين، والخلة أعلى درجات المحبة.

وقد جاء في بعض الآثار: يقول تعالى: «ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له».

وفي أثر آخر يقول تعالى: «ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»[94].

(94) ذكره ابن كثير في تفسير سورة الذاريات ج5، ص312، عن بعض كتب الالهية.

أنَّ محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه[95]، فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه، فلما أحبه ألهمه حبه وآثره به فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها فإنه من تقرَّب إليه شبراً تقرَّب إليه ذراعاً، ومن تقرَب إليه ذراعاً تقرَّب إليه باعاً، ومن أتاه مشياً أتاه هرولة.

وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له. فإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فرَّ من مُحبه وآثر غيره عليه، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره، فكيف لا يفرح به محبُّه أعظمَ فرح وأكمله؟ والشاهد أقوى شاهد تؤيده الفطرة والعقل، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت للشريعة المنزلة إلى الفطرة المكملة إلى العقل الصحيح المنور، فذلك الذي لا غاية له بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم.

ومتى أراد العبد شاهِدَ هذا من نفسه فلينظر إلى الفرحة التي يجدها بعد التوبة النصوح، والسرور واللذة التي تحصل له، والجزاءُ من جنس العمل.

(95) قدم الباري محبته للعبد على محبة العبد له في قوله تعالى: {...يحبهم ويحبونه...} المائدة 54.

فلما تاب إلى الله ففرح الله بتوبته أَعقبه فرحاً عظيماً. وهاهنا دقيقة قلَّ من يتفطن لها إلا فقيه في هذا الشأن. وهي أنَّ كل تائب لا بدَّ له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه من هم أَو غم أو ضيق أو حزن، ولو لم يكن إلا تألُّم بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره، فأَكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا على رؤوسهم لأجل هذه المحنة.

والعارف الموفَّق يعلم أنَّ الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة، فكلما كانت أقوى وأشدّ، كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم.

والمقصود أنَّ هذا الفرح من الله بتوبة عبده- مع أنه لم يأت نظيره في غيرها من الطاعات- دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله، وأن التعبد له بها من أشرف التعبدات، وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها.

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته يحكي هذه الأَقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سُئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أنَّ من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، مما كانت، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان. فإن كان بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأشد حذراً وأعظم تشميراً وأعظم ذلاً وخشية وإنابة عاد إلى أرفع مما كان، وإن كان قبل الخطيئة أكمل فى هذه الأُمور ولم يعد بعد

التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه.

[إذا محيت السيئة بالتوبة هل تحل محلها الحسنة؟]

فالصواب إن شاءَ الله فى هذه المسألة أن يقال: لا ريب أنَّ الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنما هي أمر وجودى يقتضي ثواباً، ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي، وذلك الكف والحبس أمر وجودى وهو متعلق الثواب.

وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلاً ولم يحدث به نفسه، فهذا كيف يثاب على تركه، ولو أُثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى، فإنَّ التَرك مستصحب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب على ذلك كله؟ هذا مما لا يتوهم.

وإذا كانت الحسنة لا بدَّ أن تكون أمراً وجودياً فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كلَّ ذنب منها ندماً عليه، وكف نفسه عنه، وعزم على ترك معاودته. وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت

التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم، وهو حسنة قد بدلت تلك السيّئةُ حسنةً.

وهذا معنى قول بعض المفسرين: يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنة حلَّت مكانها، فهذا معنى التبديل، لا أنَّ السيئة نفسها تنقلب حسنة.

[في الزهد]

أنَّ الزهد على ثلاثة[96] أقسام:

أحدها: فرض على كل مسلم وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخلَّ به انعقد سبب العقاب، فلا بدَّ من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده.

الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه. وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة.

الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن، وهم المشمِّرون في السير إلى الله وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفراً منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده. فليس

(96) في المخطوطة الاوقاف الكويتية والطبعات التي بين ايدينا «أربعة» لكن الصواب «ثلاثة».

الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك.

وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل مع أنَّ خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً فيها. والذى يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر وأنها كما قال الله تعالى فيها: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**﴾ [الحديد: 20].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضُ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضِ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [يونس: 24] ، وقال تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً**﴾ [الكهف: 45] ، وسماها سبحانه: «متاع الغرور» ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها وحذَّرنا مثل مصارعهم، وذم من رضي بها واطمأن إليها. وقال النبي ﷺ: «مالي

وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[97].
الثاني: علمه أنَّ وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجل خطراً وهي دار البقاءِ، وأنَّ نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليمِّ فلينظر بم يرجع»[98].

فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطرحه ولك عوضه مائة ألف دينار مثلاً، فألقاه من يده رجاءَ ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زهد فيها.

الثالث: معرفته أنَّ زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأنَّ حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكدّه ضائعاً، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك. فهذه الأُمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاءُ.

النوع الثاني: الزهد في نفسك، وهو أصعب الأقسام وأشقها، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يلجوه، فإنَّ الزاهد يسهِّل عليه الزهد في الحرام لسوءِ مغبته وقبح ثمرته، وحماية لدينه وصيانة لإيمانه، وإيثاراً للذة والنعيم على العذاب، وأنَفَةً من مشاركة الفساق والفجرة، وحمية من أن يستأثر لعدوه، ويسهِّل عليه الزهد في المكروهات

(97) أحمد (3709)، الترمذي (2534)، ابن ماجة (4109).
(98) مسلم (7197)، ابن ماجة (4108).

وفضول المباحات علمه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم.

ويسهّل عليه زهده في الدنيا معرفته بما وراءَها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الأَعلى. وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين، وهو نوعان:

أحدهما: وسيلة وبداية، وهو أن تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء، فلا تغضب لها ولا ترضي لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها، قد سبَّلتَ عرضها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها أو تجيبها إذا دعتك أو تكرمها إذا عصتك أو تغضب لها إذا ذُمت، بل هى عندك أخسُّ مما قيل فيها، أو ترفّهها عمّا فيه حظك وفلاحك، وإن كان صعباً عليها، وهذا وإن كان ذبحاً لها وأماتة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا البتة.

وهذه العقبة هي آخر عقبة يشرف منها على منازل المقربين، وينحدر منها إلى وادي البقاءِ ويشرب من عين الحياة، ويخلص روحه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات، وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق، فيا قرَّة عينها ويا نعيمها وسرورها بقربه، ويا بهجتها بالخلاص من عدوها، ومصيرها إلى وليها مولاها ومالك أمرها ومتولى مصالحها. وهذا الزهد هو أول نقدة من مهر الحب، فيا مفلس تأَخر.

والثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة، بحيث لا يستبقي منها شيئاً. بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله قد تعلَّقت رغبة محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبة في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه قد خرج عنها وسلمها لربّه، فهو يبذلها له دائماً بتعرض منه لقبولها.

وجميع مراتب الزهد المتقدمة مباد ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصحُّ إلا بتلك المراتب، فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فَمُتَمَعِّنٌ مُتَمَنٍّ كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سُلَّم.

[فصل في التوكل]

التوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعه في الطريق إلى نهايته، وكلما ازداد قربه وقوي سيره ازداد توكله. فالتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته، قال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: 23] ، فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدلَّ على انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكل، وفي الآية الأُخرى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾ [يونس: 84] فجعل دليلَ صحة الإسلام التوكل، وقال تعالى: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران: 122، 160] [المائدة: 11] [التوبة: 51] [إبراهيم: 11] [المجادلة: 10] [التغابن: 13].

فَذِكْرُ اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاءِ الإيمان للتوكل، وإنَّ قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا

بدّ، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة، فقد جمع سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه، أحدها: في سورة أُم القرآن فقال تعالى: ﴿**إِيَاكَ نَعْبُدُ وَإِيَاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:5].

والثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: 88].

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿**رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [الممتحنة: 4].

الرابع: قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾ [المزمل:9-8].

الخامس: قوله: ﴿**وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [هود: 123].

السادس: قوله: ﴿**فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الحج: 78].

السابع: قوله: ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد: 30].

فهذه السبعة مواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة والإنابة وهي الغاية، فإنَّ العبد لا بدَّ له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية فأَشرف غاياته التي لا غاية له أجلّ منها عبادة ربّه، والإنابة إليه. وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا**﴾ [الملك: 29] ، ونظيره قوله: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: 23] ، وقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران: 122، 160] [المائدة: 11] [التوبة: 51] [إبراهيم: 11] [المجادلة: 10] [التغابن: 13] .

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾ [يونس: 84] .

وأما الجمع بين التقوى والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِي اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً**﴾ [الأحزاب: 1- 3] ، وقوله: ﴿**وَمَن يَتَقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: 2- 3] .

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لقومهم: ﴿**وَمَا لَنَآ أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**﴾ [إبراهيم:12] ، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾ [النمل: 79] ، فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدْعٍ لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: «إنَّك على الحقِّ المبين » فإنَّ كونَ العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواءَ إلى ركنه الشديد، فإنَّ الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿**وَمَا لَنَآ أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**﴾ [إبراهيم: 12] .

إنَّ التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أَمره إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك. ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربّه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبَّر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر، لو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة

السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدّة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

أنَّ التوكل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأنَّ منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

[الفناء]

وهو الفناءُ عن عبادة السِّوىٰ وإرادته ومحبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه والسكون إليه فيفني بعبادة ربّه ومحبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن عبادة غيره وعن محبته ورجائه والتوكل عليه مع شهود الغير ومعاينته. فهذا أكمل من فنائه عن عبودية الغير ومحبته مع عدم شهوده له وغيبته عنه، فإذا شهد الغير في مرتبته أوجب شهوده له زيادة في محبة معبوده، وتعظيماً له وهروباً إليه وظناً به، فإنَّ نظر المحب إلى مبادئ محبوبه ومضادّه يوجب زيادة حبه له.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت»[99]. وفي سجوده: «اللَّهم لك سجدت، وبك آمنت»، وكذلك في ركوعه: «اللَّهم لك ركعت، وبك آمنت»[100].

(99) البخارى (6317)، مسلم (769).

(100) مسلم (771).

فهذا دعاءُ من قد جمع بين شهود عبوديته وشهود معبوده، ولم يغب بأحدهما عن الآخر، وهل هذا إلا كمال العبودية: أن يشهد ما يأتي به من العبودية موجهاً لها إلى المعبود الحق، محضراً لها بين يديه، متقرباً بها إليه. فأما الغيبة عنها بالكلية بحيث تبقى الحركات كأنها طبيعية غير واقعة بالارادة[101] فهذا- وإن كان أكمل من حال الغائب بشهود عبوديته عن معبوده- فحال الجامع بين شهود العبودية والمعبود أكمل منهما.

(101) أي: الغائب بشهود معبوده عن عبوديته.

فصل [لا ينفكُّ الصبر عن الشكر]

الصبر نصف الدين، فإنَّ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ:19]، وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيراً له، إن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»[102].

فمنازل الإيمان كلها بين الصبر والشكر، والذي يوضح هذا:

وهو أنَّ العبد لا يخلو قط من أَن يكون في نعمة أَو بليَّة، فإن كان في نعمة ففرضها الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها، وأما الصبر فعن مباشرة الأَسباب التي تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى.

ومن هنا يُعْلَم سر مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، وأنَّ كلاً منهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبر الغني أكمل من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل. فأفضلهما

(102) مسلم (2999).

أعظمهما شكراً وصبراً، فإنَّ فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه. فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان في بليّة ففرضها الصبر والشكر أيضاً: أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه في تلك البلية، فإنَّ لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا. فعَلِم أنه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائراً إلى الله.

أنَّ الصبر ثلاثة أقسام: إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها، وإما صبر على البلية فلا يشكو ربّه فيها، وإن كان العبد لا بدَّ له من واحد من هذه الثلاثة فالصبر لازم له أبداً لا خروج له البتة.

أنَّ الله سبحانه ذكر الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعاً، فمرَّة أمر به، ومرَّة أثنى على أهله، ومرَّة أمر نبيه ﷺ أن يبشر به أهله، ومرَّة جعله شرطاً في حصول النصر والكفاية ومرَّة أخبر أنه مع أهله، وأثنى به على صفوته من العالمين وهم أنبياؤه ورسله، فقال عن نبيه أيوب: ﴿**إِنَا وَجَدْنَاهُ صَابِرَاً، نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب**﴾ [سورة ص: 44] ، وقال تعالى لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنِ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: 35] ، وقال: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ**﴾ [النمل: 127] ، وقال يوسف الصديق،

وقد قال له إخوته: ﴿**أَإِنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف:90] ، وهذا يدل على أنَّ الصبر من أجلّ مقامات الإيمان، وأنَّ أخصّ الناس بالله وأولاهم به أشدهم قياماً وتحققاً به، وأن الخاصة أحوج إليه من العامة.

إنَّ الصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص. فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل، ولهذا في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «اللَّهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد»[103].

ومعلوم أنَّ شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة أعني اسم «الصبر» لما تخلف عنه.

قال النبي ﷺ: «ما أُعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[104].

(103) حسن بطرقه، أحمد (17133)، الترمذى (3407)، النسائي (1304)، ابن حبان (935).

(104) البخاري (1469)، مسلم (1053).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس بلاءَ الأنبياءُ ثم الأمثل فالأمثل»[105]، وقيل له في مرضه: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال ﷺ: «أجل إنَّ لي أجر رجلين منكم»[106] يعني في وعكه.

ولا ريب أنَّ ذلك الوعك مؤلم له ﷺ ، وأيضاً في مرض موته قال: «وارأساه»[107]، وهذا إنما هو من وجود أَلم الصداع، ويدخل يده في القدح ويمسح وجهه بالماء من كرب الموت ، وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ.

(105) حسن، الترمذي (2398).

(106) البخاري (5648)، مسلم (2571).

(107) البخارى (5666).

[الصبر عن المعصية]

قاعدة: الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة: منها

علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءَتها، والحياءُ من الله سبحانه، ومراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بدّ، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، وخوف الله وخشية عقابه، ومحبة الله سبحانه وهي أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعاصيه. فإنَّ المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوى سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى، وقوة العلم بسوءِ عاقبة المعصية.

وقبح أثرها والضرر الناشئ منها: من سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه وأَلمه، وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله. وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعريه من زينته والحيرة في أَمره وتخلي وليه وناصره عنه، وتولي عدوه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعداً له عنه، ونسيان ما كان حاصلاً له أَو ضعفه ولا بدّ، ومرضه الذي إذا استحكم به فهو الموت ولا بدّ، فإِنَّ الذنوب

تميت القلوب، وقصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع[108] على الخروج منها، ومجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإنَّ قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأُ من هذه الفضلات، فإنها تطلب لها مصرفاً فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام. ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه، فإنَّ النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

والجامع لهذه الأسباب كلها هو: ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإنَّ مَن باشرَ قلبَه الإيمانُ بقيام الله عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرَّم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، وامتنع منه أن لا يعمل بموجَب هذا العلم. ومن ظنَّ أنَّه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الرَّاسخ الثابت، فقد غلط. فإذا قوي سراج الإيمان في القلب، وأضاءَت جهاته كلها به، وأشرقَ نورُه في أرجائه، سرى ذلك النور إلى الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداير الإيمان، وانقادت له طائعةً مذلَّلةً غيرَ متثاقلةٍ ولا كارهة، بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محلّ كرامته. فهو كل وقت

(108) مزمع: من زمع، أي: أسرع في مشيه، المعجم الوسيط، باب الزال.

يرقب داعيه، ويتأهَّب لموافاته. والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل [الصبر على الطاعة]

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب[109] ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، ومن أَقوى أسبابها: الإيمان والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وههنا مسألة تكلَّم فيها الناس، وهي أي الصبرين أفضل صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟ وفصل النزاع في ذلك أنَّ هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوعاً ونحوه، فهذا فصل النزاع فى المسألة. والله أعلم.

(109) أي: معرفة اسباب الصبر عن المعصية.

فصل [الصبر على البلاء]

والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أُم الكتاب قبل أن يخلق فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأُمة.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: 30] ، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع بلاءٌ إلا بتوبة.

السادس: أن يعلم أنَّ الله قد ارتضاها له واختاره وقسمها، وأنَّ العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه.

السابع: أن يعلم أنَّ هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيَّأْه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أنَّ في عُقبى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافية والصحة وزوال الأَلم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره. قال الله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُم، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 216] .

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءَت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الإكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءَه وحزبه خدماً له وعوناً له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأُقصي، وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أنَّ المصيبة في حقه صارت نعماً عديدة. وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة،

وتشجيع القلب في تلك الساعة[110].

العاشر: أن يعلم أن الله يربّي عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإنَّ العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال.

(110) قال الله تعالى: (مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...) آل عمرام [179]، جاء في تفسير ابن كثير: أي: لا بد أن يعقد سببا من المحنة ، يظهر فيه وليه ، ويفتضح فيه عدوه . يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعني بذلك يوم أُحُد الذي امتحن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، تفسير ابن كثير ج1.

فصل [في الحزن]

اعلم أنَّ الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأْمر الله به في موضع قط ولا أَثنى عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثواباً، بل نهى عنه في غير موضع كقوله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: 139] ، وقال تعالى: ﴿**وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضِيقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾ [النحل: 127] ، وقال تعالى: ﴿**فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ**﴾ [المائدة: 26] ، وقال: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: 40] ، فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأَل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ [فاطر: 34] ، فحمدوه على أن أذْهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل،

وضلع[111] الدين وغلبة الرجال»[112].

فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان: فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضى أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتى أثَّر الهمَّ.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن الإحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النعم ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال.

وضلع الدَّين وغلبة الرجال قرينان، فإنَّ القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره.

والمقصود أنَّ النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [المجادلة: 10].

(111) ضلع: الثقل، مختار الصحاح، باب الضاد.

(112) البخاري (6367)، مسلم (2706).

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التى يبتلي العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما، وأما أن يكون عبادة مأموراً بتحصيلها وطلبها فلا فرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليات. ولكن يحمد في الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته، فإنَّ المؤمن إما أن يحزن.. على تفريطه وتقصيره خدمة ربّه وعبوديته، وأما أن يحزن على تورّطه في مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته.

وهذا يدلّ على صحة الإيمان في قلبه وعلى حياته، حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه، ولو كان قلبه ميتاً لم يحس بذلك ولم يحزن ولم يتألم، فما لجرح بميت إيلام، وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى، ولكن الحزن لا يجدي عليه، فإنه يضعفه كما تقدم.

بل الذى ينفعه أن يستقبل السير ويجدّ ويشمّر، ويبذل جهده، وهذا نظير من انقطع عن رفقته في السفر، فجلس في الطريق حزيناً كئيباً يشهد انقطاعه ويحدث نفسه باللحاق بالقوم. فكلما فتر وحزن حدث نفسه باللحاق برفقته، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم، ويزول عنها وحشة الانقطاع. فهكذا السالك إلى منازل الأبرار، وديار المقربين.

وأخص من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتفرقة المضعفة للقلب عن تمام سيره وجدِّه في سلوكه، فإنَّ التفرقة من أعظم البلاء على السالك، ولا سيما في ابتداء أمره، فالأول حزن على

التفريط في الأعمال، وهذا حزن على نقص حاله مع الله وتفرقة قلبه وكيف صار ظرفاً لتفرقة حاله، واشتغال قلبه بغير معبوده. وأخص من هذا الحزن حزنه على جزءٍ من أجزاءِ قلبه كيف هو خال من محبة الله؟ وعلى جزءٍ من أجزاءِ بدنه كيف هو منصرف في غير محاب الله؟ فهذا حزن الخاصة، ويدخل في هذا حزنهم على كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج.

فهذه المراتب من الحزن لا بدَّ منها في الطريق ولكن الكيّس من لا يدعها تملكه وتقعده، بل يجعل عوض فكرته فيها فكرته فيما يدفعها به، فإنَّ المكروه إذا ورد على النفس، فإن كانت صغيرة اشتغلت بفكرها فيه وفي حصوله عن الفكرة في الأسباب التي يدفعها به فأَورثها الحزن، وإن كانت نفساً كبيرة شريفة لم تفكر فيه، بل تصرف فكرها إلى ما ينفعها فإن علمت منه مخرجاً فكَّرت في طريق ذلك المخرج وأسبابه وإن علمت أنه لا مخرج منه، فكَّرت في عبودية الله فيه. وكان ذلك عوضاً لها من الحزن، فعلى كل حال لا فائدة لها في الحزن أصلاً والله أعلم.

فصل [في الخوف]

أنَّ الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي: الخوف، والرجاءُ، والمحبة وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿**قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تحويلا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء: 56- 57]، فجمع بين المقامات الثلاثة، فإنَّ ابتغاءَ الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه.

والمقصود: أنَّ الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف[113] عنه. وقال تعالى: ﴿**فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾ [المائدة: 44]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً**﴾ [الأنبياء: 90]، فالرغب:

(113) في الطبعات الكتاب التي بين ايدينا «يختلف» وفي مخطوطة مكتبة الاوقاف الكويتية: يتخلف» وهو الصواب.

الرجاءُ والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمِنهم من عذابه: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: 50].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[114]، وفي لفظ آخر: «إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى»[115].

وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاءِ، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[فاطر: 28] ، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: وكفى بخشية الله علماً. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأَعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً، فالخوف من أَجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أَعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أَليق، ولهم ألزم. فإنَّ العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أُمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

(114) البخارى (6101)، مسلم (2356).

(115) مسلم (1110).

والثاني: تصديق الوعيد وأنَّ الله رتَّب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعلّه يُمنَع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإنَّ الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوءِ عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوءَ مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتدَّ خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشدّ.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو. وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ، فإن شاءَ أن يقيمه أقامه، وإن شاءَ أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ، وكانت أكثر يمينه: «لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب»[116].

إنَّ الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده. وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشدّ، لأنه يطالب بما لا يطالب به

(116) البخاري (6617).

غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره. ونظير هذا في المشاهد أنَّ الماثل بين يدَي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفاً منه من البعيد عنه، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقوقه الخدمة وأَدائها بما لا يطالب به غيره، فهو أحقّ بالخوف من البعيد.

ومن تصوَّر هذا حقَّ تصوره فَهِم قوله ﷺ: «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[117]. ففي صحيح مسلم عن ثوبان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً. وقال: اللَّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[118]، قال تعالى: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: 17- 18]، فأخبر عن استغفارهم عقيب صلاة الليل.

قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، فلما كان السحر جلسوا يستغفرون الله[119]. وأمر الله تعالى عباده بالاستغفار عقيب الإفاضة في الحج فقال: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة: 199]، وشرع رسول الله ﷺ للمتوضيء أن يختم وضوءَه بالتوحيد والاستغفار فيقول: «أَشْهَدُ

(117) سبق تخريجه.

(118) مسلم (591).

(119) سبق تخريجه.

أَنَّ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، اللَّهمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِين وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِين»[120].

وكان من دعاء النبي ﷺ: « اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، ومثبت القلوب، ثبت قلوبنا على دينك »[121]، وأنّه ﷺ كان يدعو: «أعوذ بعزتك أن تضلني أنت الحي الذي لا تموت»[122]. وكان من دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»[123].

وعامة أدعيته ﷺ متضمنة لطلب توفيق ربّه وتزكيته له واستعماله في محابه، فمَن هُداه وصلاحُه وأسبابُ نجاته بيد غيره، وهو المالك له ولها، المتصرف فيه بما يشاءُ ليس له من أمره شيء، من أحق بالخوف منه؟ وهبْ أنه قد خلق له في الحال الهداية، فهل هو على يقين وعلم أن الله سبحانه وتعالى يخلقها له في المستقبل ويلهمه رشده أبداً؟ فعلم أنَّ خوف المقربين عند ربهم أعظم من خوف غيرهم والله المستعان.

(120) سبق تخريجه.

(121) سبق تخريجه.

(122) البخاري (7383)، مسلم (2717).

(123) أحمد (751)، أبوداود (1427)، الترمذي (3566).

[الهيبة]

الإجلال هو التعظيم، وكذلك الهيبة. أنَّ الهيبة والإجلال يجوز تعلقهما بالمخلوق، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ من إجلال الله إجلال ذى الشيبة المسلم ... «[124].

وقال ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما: هِبتُه وكان مَهيباً[125].

وأما الخشية والمخافة فلا تصلح إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿**فَلا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾ [المائدة: 44] ، وقال: ﴿**فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: 175] ، وقال: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة: 18] .

(124) حسن، ابو داود 4843، ابن المبارك في الزهد 389. النووي فى رياض الصالحين 354.

(125) البخاري (4629)، مسلم (1479).

فالخوف عبودية القلب فلا تصلح إلا لله وحده كالذل والمحبة والإنابة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب، فكيف يجعل المهابة المشتركة أفضل منه وأعلى؟

وتأملْ قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ**﴾ [النور: 52]، كيف جعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى له وحده.

وقال تعالى: ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**﴾ [الفتح: 9]، كيف جعل التوقير والتعزيز للرسول وحده، والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال. هذه حقيقته، فعلم أن الخوف من أجلّ مقامات الخواصّ وأنهم إليه أحوج وبه أقوم من غيرهم.

إنَّ الخوف إنما يكون قبل دخول الجنة، فإذا دخلوها زال عنهم الخوف الذي كان يصحبهم في الدنيا وفي عرصات القيامة، وبدلوا به أمناً، لأنهم قد أمنوا العذاب فزايلهم الخوف منه.

إنَّ الخوف إنما زال في الجنة لأن تعلقه إنما هو بالأَفعال لا بالذّات كما تقدم، وقد أمِنَهم ما كانوا يخافون منه. فقد أمنوا أن لا يفعلوا ما يخافون منه وأن يفعل بهم ربهم ما يخيفهم.

أنَّ الإجلال والمهابة والتعظيم إنما لم تزل لأنها متعلقة بنفس الذات، وهي موجودة في دار النعيم. وأما الخوف فإنه إنما زال لأنه وسيلة إلى توفية العبودية والقيام بالأمر. «يقول الله ﷻ: أين

المتحابون بجلالي؟ اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلى»[126]، فهو حب بجلاله سبحانه وتعظيمه ومهابته ليس حباً لمجرد جماله، فإنه سبحانه الجليل الجميل.

والحب الناشيء عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم في ظل عرشه يوم القيامة.

فشهود الجلال وحده يوجب خوفاً وخشية وانكساراً، وشهود الجمال وحده يوجب حباً بانبساط وإدلال ورعونة. وشهود الوصفين معاً يوجب حباً مقروناً بتعظيم وإجلال ومهابة.

وهذا هو غاية كمال العبد. والله أعلم.

(126) مسلم (2566).

فصل [في المحبة]

إن المحبة إذا كانت صادقة أَوجبت للمحب تعظيماً لمحبوبه يمنعه من انقياده إلى غيره.

والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية مشتركة، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثانى: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثالث: محبة أُنس وإلف، وهي محبة المشتركين- في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر- بعضهم بعضاً وكمحبة الإخوة بعضهم بعضاً.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التى تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شِركاً في محبة الله سبحانه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواءَ و العسل، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد، وكان أحب اللحم إليه الذراع، وكان يحب نساءه، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن إليه، وكان يحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق رضي الله عنه.

وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لا يغفره الله، فهى محبة العبودية المستلزمة للذّل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة وإيثاره على غيره.

فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً، وهي التي سوَّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله**﴾ [البقرة: 165] ، وأصح القولين أَن المعنى يحبونهم كما يحبون الله. وسوُّوا بين الله وبين أندادهم فى الحب. ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله**﴾ [البقرة: 165] فإن الذين آمنوا وأَخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوا لله.

والمقصود من الخلق والأَمر إنما هو هذه المحبة وهى أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب تعالى بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله؛ وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب

لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيمان وساق شجرة الإسلام، ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد.

فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره، ولأجلها خلقت الجنة النار، فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون فى النار لآلهتهم: ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:98-97].

فصل [في الإيثار]

إذا استقرت المحبة فى القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها، فإذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محباً له، وإن زعم أنه محب فإنما هو محب لنفسه ولحظه.

وهاهنا دقيقة ينبغى التفطن لها، وهى أن إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حب وإرادة.

فالأول: يؤثر محبوبه على غيره طلباً لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه.

والثانى: يؤثره إجابة لداعى محبته، فإن المحبة الصادقة تدعوه دائماً إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو أجلّ حظوظه، فحظه فى نفس الإيثار لا فى العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعشها فتلدرج.

والدين كلّه المعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى قيل أنَّ من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجاً إليه لكان بذله سخاءً وكرماً.

وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه فإنه الغني الحميد.

والفرق بين الإيثار والأثرة أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك والأثرة اختصاصك به على الغير، وفي الحديث: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا»[127].

فإذا عُرِف هذا، فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً، ولا يفسد عليك حالاً، ولا يهضم لك ديناً ولا يسد عليك طريقاً، ولا يمنع لك وارداً.

فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك، فإيثار نفسك عليهم أولى، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان.

وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه. فإنَّ الإيثار المحمود الذى أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب. قال الله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: 9] .

(127) البخارى (1709).

فأخبر أنَّ إيثارهم إنما هو بالشيء الذى إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة فى الطاعات.

فإنَّ الفلاح كل الفلاح فى الشح بها فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله.

ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها. قال الله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران: 133] ، وقال تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [البقرة: 148] [المائدة: 48] ، وقال تعالى: ﴿**وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: 26].

وقال النبي ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداءِ والصف الأول لكانت قرعة»[128]. والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاءُ: لا يستحب الإيثار بالقربات، والسرّ فيه- والله أعلم- أنَّ الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر، بل لا يسع إلا أحدهما.

وأما أعمال البّر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها

(128) مسلم (437).

ضيق ولا تزاحم ووسِعَتْهم كلَّهم، وإن قُدِّر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع- بحيث إذا فعله واحد فات على غيره، فإنَّ في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فإذا قُدِّر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله. والإيثار يسهِّله أُمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإنَّ من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله.

والأخلاق ثلاثة: خلق الإيثار، وهو خلق الفضل. وخلق القسمة والتسوية، وهو خلق العدل. وخلق الاستئثار والاستبداد وهو خلق الظلم. فصاحب الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحبُ الاستئثار النفوسُ إلى أذاه والتسلط عليه أسرعُ من السيل في حَدوره[129]. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإنَّ النفوس لا صبر لها عليه. ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة والكره.

(129) حدور: الموضع المنحدر. المعجم الوسيط، باب الحاء.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عَسِرٌ جداً، بل لا بد من مجاوزته إلى الفضل أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرَّب هذا عرفه، ومن لم يُجَرِّبْه فليستقرِ أحوال العالم. والموفق من وفقة الله سبحانه وتعالى.

فصل [أفضل أنواع الإيثار: الإيثار المتعلق بالخالق]

والإيثار المتعلق بالخالق أجلّ من هذا وأفضل، وهو إيثار رضاه على رضى غيره، وإيثار حبه على حب غيره، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه، وإيثار الذّل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره. وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره، فالأول آثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له، وهذا آثر الله على غيره ونفسه من أعظم الأغيار. فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله.

وعلامة هذا الإيثار شيئان،

أحدهما: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه.

الثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه، فبهذين الأَمرين يصح مقام الإيثار، ومؤنة هذا الإيثار شديدة لغلبة الأغيار وقوة داعي العادة والطبع، فالمحنة فيه عظيمة والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به، وأنه ليسير على من يسره الله عليه، فحقيق بالعبد أن يسمو

إليه وإن صعب المرتقى، وأن يشمر إليه وإن عظمت فيه المحنة، ويحمل فيه خطراً يسيراً لِمُلك عظيم وفوز كبير، فإنَّ ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الأعمال، واليسير منه يرقّى العبد ويسيّره ما لا يرقي غيره إليه في المدد المتطاولة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار. والذى يُسَهِّلهُ على العبد أُمور:

أحدها: أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة.

الثانى: أن يكون إيمانه راسخاً ويقينه قوياً، فإن هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

الثالث: قوة صبره وثباته.

فبهذه الأمور الثلاثة ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه.

والنقص والتخلف في النفس عن هذا يكون من أمرين:

أحدهما: أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك، بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشيء إلا بعد عسر، وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات، فلا يتخلص له رؤيتها وعيانها.

الثانى: أن تكون القريحة وقّادة درّاكة، لكن النفس ضعيفة مهينة إذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن إيثاره، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض، كلما ساقه خطوة وقف خطوة، أو

كسوق الطفل الصغير الذي تعلقت نفسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلى رشده وهو ملتفت إلى لهوه ولعبه لا ينساق معه إلا كرهاً. فإذا رزق العبد قريحة وقادة، وطبيعة منقادة: إذا زجرها انزجرت وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين، وأُيِّد مع ذلك بعلم نافع وإيمان راسخ، أقبلت إليه وفود السعادة من كل جانب. ولما كانت هذه القرائح والطبائع ثابتة للصحابة رضى الله عنهم، وكملها الله لهم بنور الإسلام وقوة اليقين ومباشرة الإيمان لقلوبهم، كانوا أفضل العالمين بعد الأنبياء والمرسلين وكان من بعدهم لو أنفق مثل جبل أُحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نَصيفَه[130].

ومن تصور هذا الموضع حقَّ تصوره علِم من أين يلزمه النقص والتأخّر، ومن أين يتقدم ويتأخر ويترقّي في درجات السعادة وبالله التوفيق. والله أعلم.

(130) يشهد له ما أخرجه أحمد (1179)، البخاري (3673)، مسلم (6489)، الترمذي (3861).

فصل [موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها]

إنَّ موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها، وليست نفس المحبة، بل المحبة تستدعى الموافقة، وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم، قال الله تعالى: ﴿**قُل إِن كنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: 31]، قال الحسن: قال قوم على عهد النبي ﷺ: إنا نحب ربنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**قُل إِن كنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾[131] [آل عمران: 31]. وقال الجنيد: ادَّعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة، وهي قوله: ﴿**قُل إِن كنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: 31]، يعني أنَّ متابعة الرسول هي موافقة حبيبكم، فإنه المبلغ عنه ما يحبه وما يكرهه.

إنَّ المحبة توجب سفر القلب نحو المحبوب دائما، والمحبة وطنه، وتوجب مثوله وقيامه بين يدي محبوبه وهو قاعد، وتجافيه عن مضجعه ومفارقته إياه وهو فيه راقد، وفراغه لمحبوبه كله وهو

(131) تفسير الطبري، ج5، ص450.

مشغول في الظاهر بغيره. وقال بعض المريدين لشيخه: أيسجد القلب بين يدي الله؟ فقال: نعم سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة. فهذه سجدة متصلة بقيامه وقعوده وذهابه، ومجيئه، وحركته، وسكونه. وكذلك يكون جسده في مضجعه وقلبه قد قطع المراحل مسافراً إلى حبيبه، فإذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حبه وشوقه، فيهزه المضجع إلى سَكَنه. كما قال الله تعالى في حق المحبين: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً**﴾ [السجدة: 16]، فلما تجافت جنوبهم عن المضاجع جافت الجنوب عنها واستخدمتها وأمرتها فأطاعتها.

ويحكى أنَّ بعض الصالحين اجتاز بمسجد، فرأى الشيطان واقفاً ببابه لا يستطيع دخوله فنظر فإذا فيه رجل نائم وآخر قائم يصلى. فقال له: أيمنعك هذا المصلي من دخوله؟ فقال: كلا، إنما يمنعني ذلك الأسد الرابض[132]، ولولا مكانه لدخلت.

وبالجملة فقلب المحبّ دائماً في سفر لا ينقضي نحو محبوبه، كلما قطع مرحلة له ومنزلة تبدَّتْ له أُخرى فهو مسافر بين أهله، وظاعن وهو في داره، وغريب وهو بين إخوانه وعشيرته، ويرى كل أحد عنده ولا يرى نفسه عند أحد. فقوة تعلق المحب بمحبوبه توجب له أن لا يستقرَّ قلبه دون الوصول إليه، وكلما هدأت حركاته وقلّت شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه، بل قوى سيره إلى محبوبه.

(132) الرابض: المريض، المعجم الوسيط، باب الراء. أي: كالأسد يهاب وإن كان مريضا.

ومحك هذا الحال يظهر في مواطن أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعه وتفرّغ حواسه وجوارحه الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه. فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه. فإنه إذا استيقظ وردت إليه روحُه ردَّ معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم. ولكن كان قد خالط روحه وقلبه، فلمّا ردّت إليه الروح أسرعَ من الطرف ردَّ إليه ذكرُ محبوبه متصلاً بها، مصاحباً لها، فورد عليه قبل كل وارد، وهجم عليه قبل كل طارق. فإذا وردتْ عليه الشواغل والقواطع وردتْ على محلّ ممتليء بمحبة ما يحبه فوردت على ساحته من ظاهرها، فإذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما في قلبه من الحب.

فإنه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه ولذلك يسمى غراماً، وهو الحب اللازم الذي لا يفارق: فسمع بمحبوبه وأبصر به وبطش به ومشى به، فصار محبوبه في وجوده في محل سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشى بها. هذا مثل محبوبه في وجوده وهو غير متحد به، بل هو قائم بذاته مباين له.

وهذا المعنى مفهوم بين الناس لا ينكره منهم إلا غليظ الحجاب، أو قليل العلم، ضعيف العقل، يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره، فيظن أنه هو نفس ذاته الخارجة قد اتَّحدت به أو حلَّت

فيه، فينشأُ من قسوة الأول وكثافته غلظ حجاب، ومن قلّة علم الثاني ومعرفته وضعف تمييزه ضلال الحلول والاتحاد، وضلال الإنكار والتعطيل والحرمان، ويخرج للبصير من بين فَرث هذا ودم هذا لبنُ الفطرة الأُولى خالصاً سائغاً للشاربين.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إن كان محباً، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه، وقد أقبل بقلبه على محبوبه ، وكان قبل ذلك معذباً بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه وآوى عنده، واطمأن بذكره، وقرَّت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته، فلا شيء أهمّ إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[133]، ولم يقل: أرحنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل فى هم وغم حتى تحضر الصلاة فيزول همه وغمه، أو كما قال. فالصلاة

(133) سبق تخريجه.

قرّة عيون المحبين وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة، فَلَهُمْ فيها شأن وللنقارين[134] شأْن، يشكون إلى الله سوءَ صنيعهم بها إذا ائتموا بهم، كما يشكوا الغافل المعرض تطويل إمامه، فسبحان من فاضل بين النفوس وفاوتَ بينها هذا التفاوت العظيم.

وبالجملة فمن كان قرَّة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه ولا أنعم عنده منها، ويودّ أَن لو قطع عمرَه بها غير مشتغل بغيرها، وإنما يسلي نفسه إذا فارقها بأنه سيعود إليها عن قرب فهو دائماً يثوب إليها ولا يقضي منها وطراً فلا يزنُ العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل.

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإنَّ القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده. ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاءِ.

والسرُّ في هذا- والله أعلم- أن عند معاينة الشدائد والأهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياءِ إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكر المحبوب الذي يفوت بفوات حياته.

(134) شبه فعل الذي يؤدي الصلاة بسرعة، وهمه ان يفرغ منها إذا دخل، بطائر النقار الذي ينقر الشجرة بسرعة.

ولهذا- والله أعلم- كثيراً ما يعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبه وكثرة ذكره له، وربما خرجت روحه وهو يلهج به. وأيضاً فإنه عند الموت تنقطع شواغله وتبطل حواسه فيظهر ما في القلب ويقوي سلطانه، فيبدو ما فيه من غير حاجب ولا مدافع. وكثيراً ما سمع من بعض المحتضرين عند الموت: شاه[135] مات، وسمع من آخر بيت شعر لم يزل يغنى به حتى مات وكان مغَنِّياً، فمن كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته، وجد ذلك أحوجَ ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله. ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربّه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يُلزِم قلبه ولسانه ذكرَ الله حيثما كان لأَجل تلك اللحظة التى إن فاتته، شقيَ شقاوة الأبد. فنسأَل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(135) شاه (أو الملك): من احجار الشطرنج.

فصل [تعريفات المحبة]

وقال أبو يزيد[136]: المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك[137]. وقيل: المحبة أن يميتك حبيبك وتحيا به[138].

وقال الحارث بن أسد[139]: المحبة ميلك إلى المحبوب بكلّيّتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبّه[140].

(136) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، وكان جده مجوسيا أسلم، وكانوا ثلاثة إخوة: آدم وطيفور وعلي، وكلهم كانوا زهادا وعبادا، وأبو يزيد كان أجلهم حالا. قيل: مات سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين. الرسالة القشيرية.

(137) الرسالة القشيرية، باب المحبة.

(138) الرسالة القشيرية، باب التصوف، من كلام الجنيد.

(139) أبو عبداله الحارث بن أسد المحاسبي. عديم النظير فى زمانه علما، وورعا، ومعاملة، وحالا. بصري الاصل. مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين. الرسالة القشيرية.

(140) الرسالة القشيرية، باب المحبة.

وقال أبو عمرو الزجاجي[141]: سألت الجنيد عن المحبة فقال: تريد الإشارة؟ قلت: لا. قال: تريد الدعوى؟ قلت: لا. قال: فإيش تريد؟ قلت: عين المحبة، فقال: أن تحب ما يحب الله فى عباده، وتكره ما يكرهه الله فى عباده[142].

وقد قيل في المحبة حدود أكثر من هذا وكل هذا تعن، ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها.

وأما ذكر الحدود والتعريفات فإنما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم، فإذا زال الإشكال وعدم الاستعجام، فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات، كما قال بعض العارفين: إنَّ كلَّ لفظ يعبر به عن الشيء فلا بدَّ أن يكون ألطف وأرقَّ منه. والمحبة ألطف وأرقّ من كلِّ ما يعبر به عنها.

(141) أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي النيسابورى. جاور بمكة سنين كثيرة، ومات بها. صحب الجنيد، وأبا عثمان، والنوري، والخواص، ورويما. مات سنة ثمان وأربعين وثلاث مائة. الرسالة القشيرية.

(142) شعب الايمان للبيهقي 468، ج2، باب معاني المحبة.

فصل [صيغ التعبير عن المحبة]

قال على بن عبيد وكتب يحيى بن معاذ[143] إلى أبى يزيد: سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السموات والأرض ما روى بعد، ولسانه خارج وهو يقول هل من مزيد[144]. فلم يَرَ هذان العارفان التكتم بها وإخفائها وجحدها وهما هما. وقال الشبلى[145]: المحب إذا سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك[146].

(143) هو أبو زكريا يحي بن معاذ الرازي، كان أوحد وقته في زمانه، له لسان في الرجاء خصوصا، وكلام في المعرفة. خرج الى بلخ فأقام بها مدة، ورجع الى نيسابور، ومات ﷺ بها سنة 258 هجرى. الرسالة القشيرية.

(144) الرسالة القشيرية، باب المحبة.

(145) هو ابوبكر بن دلف بن جحدر الشبلي، بغدادي المولد والمنشأ، أصله من أشروسنة (بلدة كبيرة بماوراء النهر بين سيحون وسمرقند)، صحب الجنيد ومن في عصره، وكان نسيج وحده حالا وظرفا وعلما. مالكي المذهب، وكان حافظا للموطأ. تاب في مجلس خير النساج، أتى الى دماوند وقال: كنت والى بلدكم، فاجعلوني في حل. ومجاهداته في بداياته فوق الحد. عاش سبعا وثمانين سنة، ومات سنة 334 هجرى وقبره ببغداد. الرسالة القشيرية والطبقات الكبرى للشعرانى.

(146) الرسالة القشيرية، باب المحبة.

والتحقيق: أنَّ هذا هو حال المتمكن في حبه، الذي تزول الجبال الراسيات وقلبه على الود لا يلوى ولا يتغير.

والأول حال المريد المبتدئ الذي قد علقت نار المحبة فى قلبه، ولم يتمكن اشتعالها، فهو يخاف عليها عواصف الرياح أن تطفئها، فهو يخبئها ويكتمها ويسترها من الرياح جهده، فإذا اشتغلت وتمكن وقودها في القلب لم تزدها كثرة الرياح إلا وقوداً واشتعالاً. فهذا يختلف باختلاف الناس وتفاوتهم في قوة المحبة وضعفها.

والمقصود أنَّ من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها وأحكامها لن يؤمن أن يكون من أهل العلم بالمحبة لا من المتصفين بها حالاً، فكم بين العلم بالشيء والاتصاف به ذوقاً وحالاً، فعلم المحبة شيء ووجودها في القلب شيء. وكثير من المحبين الذين امتلأت قلوبهم محبة لو سئل عن حدِّها وأحكامها وحقيقتها لم يطق أن يعبر عنها، ولا يتهيأ له أن يصفها ويصف أحكامها، وأكثر المتكلمين فيها إنما تكلموا فيها بلسان العلم لا بلسان الحال.

وهذا والله أعلم هو معنى قول بعض المشايخ: أعظم الناس حجاباً عن الله أكثرهم إليه إشارة[147]، فإنه إنما حظه منه الإشارة إليه لا عكوف القلب عليه، كالفقير الذي دأبه وصف الأغنياء وأموالهم، ووصف الدنيا وممالكها، وهو خِلو من ذلك.

(147) صفة الصفوة، ج2، ص318، من كلام أبو يزيد البسطامي.

ولا ريب أن وجود الحب فى القلب وترك الكلام منه علماً، خير من كثرة الكلام فى هذه المسألة وخلو القلب منها، وخير من الرجلين من امتلأ قلبه منها حالاً وذوقاً، وفاضت على لسانه إرشاداً وتعليماً ونصيحة للأُمة. فهذا حال الكُمَّل من الناس. والله المسؤول من فضله وكرمه.

[محبة العوام والخواص]

قال[148] أبو العباس[149]: «**وأما محبَّة العوام فهي محبة تنبتُ من مطالعة المنَّة، وتثبتُ باتباع السنَّة، وتنمو على الإجابة للغاية، وهي محبة تقطع الوسواس، وتلذّذ الخدمة، وتسلّي عن المصائب، وهي في طريق العوام عمدة الإيمان**».

(148) أي أبو العباس بن العريف الصنهاجي في كتابه (محاسن المجالس).

(149) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاءالله الصنهاجي الأندلسي المريّي المعروف بابن العريف، كان من كبار الصالحين والاولياء المتورعين، وله المناقب المشهورة، وله كتاب (محاسن المجالس) وغيره من الكتب المتعلقة بطريق القوم، وله نظم حسن في طريقهم أيضاً. وبينه وبين القاضي عياض بن موسى اليحصبي مكاتبات حسنة، وكانت عنده مشاركة في أشياء من العلوم، وعناية بالقراءات وجمع الروايات واهتمام بطرقها وحملتها، وكان العباد وأهل الزهد يألفونه ويحمدون صحبته. وكانت وفاة ابن العريف سنة ست وثلاثين وخمسمائة بمراكش ﷺ تعالى، ليلة الجمعة أول الليل، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشربن من صفر، وقد كان سعي به الى صاحب مراكش، فأحضره اليها فمات، واحتفل الناس بجنازته وظهرت له كرامات، فندم على استدعائه، وصاحب مراكش الذي استدعاه هو علي بن يوسف بن تاشفين. وفيات الأعيان لإبن خلكان ج1.

لا ريب أنَّ المحبة درجات متفاوتة، بعضها أكمل من بعض. وكل درجة خاصة بالنسبة إلى ما تحتها، عامة بالنسبة إلى ما فوقها، فقوله: «وأما محبة العوام فهي محبة تنبت من مطالعة المنة» يعني أن لهذه المحبة منشأ وثبوتاً ونمواً. فمنشأها الإحسان ورؤية فضل الله ومنته على عبده، وثبوتها باتباع أوامره التي شرعها على لسان رسول الله ﷺ، ونموها وزيادتها يكون بإجابة العبد لدواعي فقره وفاقته إلى ربّه، فكلما دعاه فقره وفاقته إلى ربّه أجاب هذا الداعي وهو فقير بالذات فلا يزال فقره يدعوه إليه، فإن دامت استجابته له بدوام الداعي لم تزل المحبة تنمو وتتزايد، فكلما أخطر الرّب في قلبه خواطر الفقر والفاقة بادر قلبه بالإجابة والانكسار بين يديه ذُلاً وفاقة وحباً وخضوعاً، وإنما كانت هذه محبة العوام عنده لأنَّ منشأها من الأفعال، لا من الصفات والجمال، ولو قطع الإحسان عن هذه القلوب لتغيرت وذهبت محبتها أو ضعفت، فإنَّ باعثها إنما هو الإحسان، ومن ودَّك[150] لأمر ولى عند انقضائه، فهو برؤية الإحسان مشغول، وبتوالي النعم عليه محمول.

قوله: «**وهي محبة تقطع الوسواس، وتلذذ الخدمة، وتسلى على المصائب، وهي في طريق العوام عمدة للإيمان**». إنما كانت هذه المحبة قاطعة للوسواس لإحضار المحب قلبه بين يدي محبوبه. والوسواس إنما ينشأُ من الغيبة والبعد، وأما الحاضر المشاهد فماله

(150) من الوَدَك: الدسم. المعجم الوسيط، باب الواو.

وللوسواس؟ فالمُوَسوِسُ يجاهد نفسه وقلبه ليحضر بين يدي معبوده، والمحبُّ لم يغب قلبه عن محبوبه فيجاهده على إحضاره، فالوسواس والمحبة متنافيان، ومن وجه آخر إنَّ المحب قد انقطعت عن قلبه وساوس الأطماع لامتلاء قلبه من محبة حبيبه فلا تتوارد على قلبه جواذب الأطماع والأماني لاشتغاله بما هو فيه.

وقوله: «**وتلذّذ الخدمة**» هو صحيح، فإنَّ المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه في طاعته، وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذّة الطاعة والخدمة أكمل، فليَزِنْ العبد إيمانه ومحبته لله بهذا الميزان، ولينظر هل هو ملتذ بخدمة محبوبه، أو متكرّه لها يأتي بها على السآمة والملل والكراهة؟ فهذا محكّ إيمان العبد ومحبته لله. قال بعض السلف: إني أدخل الصلاة فأحمل همَّ خروجي منها ويضيق صدري إذا فرغت أني خارج منها، ولهذا قال النبي ﷺ «جعلت قرة عيني في الصلاة»[151].

وقوله: «**وتسلّي عن المصائب**» صحيح، فإنَّ المحب يتسلّي بمحبوبه عن كل مصيبة يصاب بها دونه، فإذا سلم له محبوبه لم يبالِ لما فاته فلا يجزع على ما ناله، فإنه يرى في محبوبه عوضاً عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عوضاً منه أصلاً، فكل مصيبة عنده هينة إذا أبقت عليه محبوبه.

(151) سبق تخريجه.

وقوله: «**وهي في طريق العوامّ عمدة الإيمان**» وإنما مراده هذه المحبة الخاصة التى تنشأُ من رؤية النعَم هي عمدة إيمان العوام، وأما الخواص فعمدة إيمانهم محبة تنشأُ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماءِ والصفات. والله أعلم.

قال أبو العباس: «**وأما محبَّة الخواصّ فهي محبة خاطفة: تقطع العبارة، وتدقِّق الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت، ولا تعرف إلا بالحيرة والسكوت.**»

فيقال: ههنا مرتبتان من المحبة مختلف فى أيتهما أكمل من الأُخرى: إحداهما هذه المرتبة التى أشار إليها المصنف، وهي الدرجة الثالثة التى ذكرها شيخ الإسلام في منازله: فقال: «**والدرجة الثالثة محبة خاطفة تقطع العبارة، وتدقق الإشارة، ولا تنتهى بالنعوت وهذه المحبة قطب هذا الشأْن، وما دونها مجالّ تنادي عليها الأَلسن، وادَّعَتها الخليقة، وأوجَبَتها العقول**».

والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة، وهى المحبة التى تنشأُ من مطالعة الصفات، فقال فى منازله: «**والدرجة الثانية محبة تبعث على إيثار الحق على غيره، وتلهجُ اللسان بذكره، ويُعلق القلبَ بشهوده، وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر في الآيات والارتياض بالمقامات**».

وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناءً على أُصولهم، فإن الفناءَ هو غاية السالك التي لا غاية له وراءَها، فهذه المحبة لما أفنَت المحب واستغرقت روحه، بحيث غيبته عن شهوده

وفني فيها المحب وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك إلا محبوبه وحده، فكأَنه هو المحب لنفسه بنفسه، إذ فني من لم يكن وبقى من لم يزل.

ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها «قاطعةً للعبارة، مدقّقةً للإشارة» يعني تدِقّ عنها الإشارة، ولأنَّ الإشارة تتناول محباً ومحبوباً، وفي هذه المحبة قد فني المحب فانقطع تعلق الإشارة به إذ الإشارة لا تتعلق بمعدوم.

وسرّ هذا المقام عندهم هو الفناءُ في الحب بحيث لا يشاهد له رسماً ولا محبة ولا سبباً، ولهذا كانت الدرجتان اللتان قبله عنه معلولتين، لأنهما مصحوبتان بالبقاءِ وشهود الأسباب، بخلاف الثالثة، ولهذا قال: «ولا تنتهى بالنعوت» يعني أنَّ النعت لا يصل إليها ولا يدركها.

وهذا بناء على قاعدته فى كل باب من أبواب كتابه[152]، يجعل الدرجة الثالثة التى تتضمن الفناءَ أكمل مما قبلها والصواب أن الدرجة الثانية أكمل من هذه وأتم، وهي درجة الكملّ من المحبين، ولهذا كان إمامهم وسيدهم وأعظمهم حباً ﷺ في الذروة العليا من المحبة، وهو مراع لجريان الأُمور ولجريان الأُمة، مثل سماعه بكاءَ الصبى فى الصلاة فيخففها لأجله، ومثل التفاته فى صلاته إلى الشِّعب الذى بعث منه العين يتعرف له أَمر العدوّ، وهذا هو في أعلى درجات المحبة.

(152) أي كتاب «منازل السائرين»

ولهذا رأى ما رأى في ليلة الإسراءِ وهو ثابت الجأش حاضر القلب لم يفن عن تلقي خطاب ربّه وأوامره، ومراجعته في أمر الصلاة مراراً ولا ريب أنَّ هذه الحال أكمل من حال موسى الكليم صلوات الله وسلامه عليهما فإنَّ موسى خرَّ صعقاً وهو في مقامه في الأرض لما تجلّى ربّه للجبل، والنبي ﷺ قطع تلك المسافات وخرق تلك الحجب ورأى ما رأى وما زاغ بصره وما طغى، ولا اضطرب فؤاده ولا صعق ﷺ.

ولا ريب أن الوراثة المحمدية أكمل من الوراثة الموسوية وتأمل شأن النسوة اللاتي رأَين يوسف كيف أدهشهنَّ حسنه، وتعلَّق قلوبهنَّ، به، وأفناهن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز أكمل حباً منهن له وأشدّ ولم يعرض لها ذلك، مع أنَّ حبها أقوى وأتم، لأن حبها كان مع البقاءِ وحبَهُنَّ كان مع الفناءِ، فالنسوة غيبهنَّ حسنه وحبه عن أنفسهنَّ، فبلغنَ من تقطيع أيديهنَّ ما بلغنَ، امرأة العزيز لم يغيبها حبها له عن نفسها، بل كانت حاضرة القلب متمكنة في حبها، فحالها حال الأقوياءِ من المحبين، وحال النسوة حال أصحاب الفناءِ.

ومما يدل على أنَّ حال البقاء في الحب أكمل من حال الفناءِ، أنَّ الفناءَ إنما يعرض لضعف النفس عن وارد المحبة، فتمتلئ به، وتضعف عن حمله، فيفنيها ويغيبها عن تمييزها وشهودها، فيورثها الحيرة والسكوت. وأما حال البقاءِ فيدل على ثبات النفس وتمكنها، وأنها حملت من الحب ما لم يطق حمله صاحب الفناءِ، فتصرفَت في

حبها ولم يتصرف فيها، والكامل من إذا ورد عليه الحال تصرف هو فيه ولا يدع حاله يتصرف فيه.

وأيضاً فإنَّ البقاءَ متضمن لشهود كمال المحبوب، ولشهود ذلّ عبوديته ومحبته، ولشهود مراضيه وأوامره، والتمييز بين ما يحبه ويكرهه، والتمييز بين المحبوب إليه والأحبّ، والعزم على إيثار الأحبّ إليه. فكيف يكون الفانى عن شهود هذا يتعين الحب له أكمل وأقوى؟ وأي عبودية للمحبوب في فناءِ المحب في محبته؟

وهل العبودية كل العبودية إلا في البقاءِ والصحو، وكمال التمييز وشهود عزة محبوبه وذلّه، وهو في حبه واستكانته فيه، واجتماع إرادته كلها فى تنفيذ مراد محبوبه؟ فهذا وأمثاله مما يدل على أن الدرجة الثانية التى أشار إليها أكمل من الثالثة وأتم، وهكذا في جميع أبواب الكتاب والله أعلم.

وكأَني بك تقول: لا يقبل في هذا إلا كلام من قطع هذه المفاوزَ حالاً وذوقاً، وأما الكلام فيها بلسان العلم المجرد فغير مقبول، والمحبون أصحاب الحال والذوق في المحبة لهم شأن وراءَ الأدلة والحجج.

فاعلم أولاً أنَّ كل حال وذوق ووجد وشهود لا يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل فهو من عيش النفس وحظوظها، فلو قُدِّرَ أنَّ المتكلم إنما تكلم بلسان العلم المجرَّد، فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال يخالف العلم والعلم يخالفه.

وليس من الإنصاف ردّ العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين فى تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم، فكانت فتنة فى الأرض وفساد كبير. وكم قد ضل وأضل مُحَكِّمُ الحال على العلم، بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال إليه، فما زكاه شاهد العلم فهو المقبول، وما جرحه شاهد العلم فهو المردود، وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق رضي الله عنهم، يوصون بذلك ويخبرون أنَّ كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل. والله أعلم.

فصل [فى الشوق]

قال أبو العباس: «**وأما الشوق فهو هبوب القلب إلى غائب، وإعواز الصبر عن فقده، وارتياح السرّ إلى طلبه. وهو من مقامات العوام، وأما الخواصّ فهو عندهم علّة عظيمة لأن الشوق إنما يكون إلى غائب**». ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة والطريق عندهم أن يكون العبد غائباً والحق ظاهراً. ولهذا المعنى لم ينطق بالشوق كتاب ولا سنة صحيحة، لأن الشوق مخبر عن بعد ومشير إلى غائب، وهو يطلع إلى إدراك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4].

اختلف الناس في الشوق والمحبة أيهما أعلى؟ فقالت طائفة: المحبة أعلى من الشوق[153] هذا قول ابن عطاء[154] وغيره، واحتجوا بأن الشوق غايته أن يكون أثراً من آثار المحبة، ومتولداً عنها:

(153) الرسالة القشيرية، باب الشوق.

(154) ابن عطاء هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي، من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم، كان الخرازيعظم شأنه. وهو من أقران الجنيد، صحب ابراهيم المارستاني. مات سنة تسع ثلاث مائة. الرسالة القشيرية.

فهى أصله وهو فرعها. قالوا: والمحبة توجِب آثاراً كثيرة فمن آثارها الشوق. وقالت طائفة منهم سرى السقطى وغيره: الشوق أعلى. قال الجنيد: سمعت السِري يقول: الشوق أجلّ مقامات العارف، إذا تحقق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه.

وإنما يظهر سر المسألة بذكر: حقيقة الشوق، والفرق بينه وبين المحبة.

فحقيقة الشوق: هو سفر القلب فى طلب محبوبه، بحيث لا يقر قراره حتى يظفر به ويحصل له.

وقيل: هو لهيب ينشأ بين أثناء الحشا، سببه الفرقة، فإذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهيب[155].

وقيل: الشوق هبوب القلب إلى محبوب غائب.

وقيل: الشوق نزوح القلب نحو المحبوب من غير منازع. ويقال: الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد.

فهذه الحدود ونحوها مشتركة في أن الشوق إنما يكون مع الغيبة من المحبوب وأما مع حضوره ولقائه فلا شوق. وهذه حجة من جعل المحبة أعلى منه، فإن المحبة لا تزول باللقاءِ.

والفرق بينهما: فرق ما بين الشيء وأثره. فإن الحامل على الشوق هو المحبة، فالمحبة بَذْرٌ في القلب، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر، وكذلك من ثمراتها حمدُ المحبوب والرضى عنه وشكره وخوفه ورجاؤه

(155) الرسالة القشيرية، باب الشوق.

والتنعيم بذكره والسكون إليه والأُنس به والوحشة بغيره، وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها، وهو حياتها، فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاءِ والكراهة: فإن القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد فى الهرب منه، وإذا أحبَّه جدَّ في الهرب إليه وطلبه، فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه ولشدّة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ويفهم منه ويعبر عنه.

قال أبو القاسم القشيري: سمعت الأستاذ أبا على يقول في قوله ﷺ: « أسألك الشوق إلى لقائك » قال: كان الشوق مائة جزءٍ فتسعة وتسعون له، وجزءٌ متفرق في الناس فأراد أن يكون ذلك الجزءُ له أيضاً، فغار أن تكون شظية من الشوق في غيره. قال: وسمعته يقول في قول موسى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: 84] ، قال: معناه شوقاً إليك، فسترهُ بلفظ الرضا[156] ، وهذا أكثر مشايخ الطريق يطلقونه ولا يمتنعون منه. وإذا كان الشوق هو سفر القلب في طلب محبوبه ونزوعه إليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلها وأعلاها، ومن أنكر شوق العبد إلى ربّه فقد أنكر محبته له، لأن المحبة تستلزم الشوق، فالمحب دائماً مشتاق إلى لقاء محبوبه: لا يهدأُ قلبه ولا يقر قراره إلا بالوصول إليه.

فأما قوله: «**إنَّ الشوق عند الخواصّ علّة عظيمة، لأن الشوق إنما يكون إلى غائب، ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة**»

(156) الرسالة القشيرية، باب الشوق.

فيقال: المشاهدة نوعان: مشاهدة عرفان، ومشاهدة عيان، وبينهما من التفاوت ما بين اليقين والعيان، ولا ريب أنَّ مشاهدة العرفان متفاوتة بحسب تفاوت الناس بالمعرفة ورسوخهم فيها، وليس للمعرفة نهاية تنتهي إليها بحيث إذا وصل إليها العارف سكن قلبه عن الطلب، بل كلما وصل منها إلى معلَم ومنزلة اشتدَّ شوقه إلى ما وراءَه، وكلما ازداد معرفة ازداد شوقاً، فشوق العارف أعظم الشوق فلا يزال في مزيد من الشوق ما دام في مزيد من المعرفة، فكيف يكون الشوق عنده علة عظيمة؟ هذا من المحال البين.

بل من عرف الله اشتاق إليه، وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له. هذا مع الشوق الناشيء عن طلب اللقاءِ والرؤية والمعرفة العيانية، فإذا كان القلب حاضراً عند ربّه وهو غير غائب عنه لم يوجب له هذا أن لا يكون مشتاقاً إلى لقائه ورؤيته، بل هذا يكون أتم لشوقه وأعظم.

فظهر أن قوله: «**وإنَّ الشوق علّة عظيمة في طريق الخواص**» كلام باطل على كل تقدير، وإنَّ الشوق بالحقيقة إنما هو شوق الخواص العارفين بالله، والعبد إذا كان له مع الله حال أو مقام وكشف له عما هو أفضل منه وأجل اشتاق إليه بالضرورة، ولم يكن شوقه علة له ونقصاً في حاله بل زيادة وكمالاً، ويكون ترك الشوق هو العلة.

فاعلم أن الشوق نوعان:

شوق إلى اللقاء، فهذا يزول باللقاء. وشوق في حال اللقاء، وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقاً لا ينقطع أبداً، فلا تزال الروح مشتاقة إلى مزيد هذا التعلق وقوّته اشتياقاً لا يهدأ. والله أعلم.

فصل [مراتب الشوق ومنازله]

قال صاحب «منازل السائرين»: «**هو على ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: شوق العابد إلى الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل.

والدرجة الثانية: شوق إلى الله ﷻ زَرَعَهُ الحب الذي ينبت على حافات المَنَنِ، وتعلق قلبه بصفاته المقدسة، واشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بِرّهِ وعلامة فضله. وهذا شوق تغشاه المبارّ، وتخالجه المسارّ ويقارنه الاصطبار.

والدرجة الثالثة: نار أضرمها صفوُ المحبة، فنغَّصت العيش، وسلبت السلوّ، ولم يُنَهْنِهْها مَغْزَىً دون اللقاءِ».

قلت: الدرجة الأولى هي شوق إلى فضل الله وثوابه. والثانية: شوق إلى لقائه ورؤيته. والثالثة: شوق إليه لا لعلة ولا لسبب ولا ملاحظة فيه غيرَ ذاته. فالأول: حظّ المشتاق من إفضاله وإنعامه، والثاني: حظّه من لقائه ورؤيته، والثالث: قد فنيت فيه الحظوظ واضمحلّت فيه الأقسام.

وقوله في الدرجة الأُولى: «**ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل**» هذه ثلاث فوائد ذكرها في هذا الشوق: أمن الخائف، وفرح الحزين، والظفر بالأمل. فهذه المقاصد لما كانت حاصلة بدخول الجنة كانت مصوّرة للنفس أشدَّ الشوق لها حصول هذه المطالب وهي الفوز والفرح. وجماع ذلك أمران: أحدهما: النجاة من كل مكروه، والثاني: الظفر بكل محبوب. فهذان هما المشوقان إلى الجنة.

وقوله في الثانية: «**شوق إلى الله سبحانه وتعالى زرعه الحب**» وهو أن الشوق ثمرة الحب.

وقوله: «**الذي ينبت على حافات المنن**» أي أنشأه الفكر في منن الله تعالى وأياديه وأنعامه المتواترة، وفيه إشارة إلى أنَّ هذا الحب الذي هو نابت على الحافات والجوانب بعده حب أكمل منه، وهو الحب الناشيء من شهود كمال الأسماء والصفات، وذلك ليس من نبات الحافات، ولكن من الحب الأول يدخَلُ في هذا كما تقدم، ولهذا قال: «**تعلق قلبُه بصفاته المقدسة**».

وقوله: «**اشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وعلامة فضله**» يشير به إلى ما يكرم الله به عبده من أنواع كراماته التي يستدلّ بها على أنّه مقبول عند ربّه ملاحَظٌ بعنايته، وأنه قد استخدمه وكتبه في ديوان أوليائه وخواصه. ولا ريب أنَّ العبد متى شاهد تلك العلامات والآيات قوي قلبه وفرح بفضل ربّه، وعلم أنه أُهِلَّ فطاب له السير ودام اشتياقه وزالت عنه العلل، وما لم ينعم

عليه بشيء من ذلك لم يزل كئيباً حزيناً خائفاً أن يكون ممن لا يصلح لذلك الجناب ولم يصل لتلك المنزلة.

وقوله: «**وهذا شوق تغشاه المبارّ**» هي جمع مبرَّة وهي البرّ، أي أن هذا الشوق مشحون بالبر مغشيٌ به، وهو إما برّ القلب وهو كثرة خيره، فهذا القلب أكثر القلوب خيراً، فيفعل البر تقرُّباً إلى من هو مشتاق إليه، فهو يجيش بأَنواع البرّ، وهذه من فوائد المحبة أن قلب صاحبها ينبع منه عيون الخير وتتفجَّر منه ينابيع البر، يريد به بأنَّ مبارّ الله ونعمه تغشاه على الدوام.

وقوله: «**وتخالجه المسارّ**» أي يخالطة السرور في غضون أشواقه، فإنها أشواق لا وحشة معها ولا ألم، بل هي محشوة بالمسرات.

وقوله: «**ويقارنه الاصطبار**» أي صاحبه له قوة على اصطباره على مرضاة حبيبه لشوقه إليه.

وقوله في الدرجة الثالثة: «**إنها نار أضرمها صفو المحبة**» يعني أنَّ هذا الشوق يتوقَّد من خالص المحبة التي لا تشوبها علَّة، فهو أشدّ أنواع الشوق، ولهذا «**نغَّصت العيش**» أي كدَّرته ونغَّصت المشتاق فيه لأنّه لا يصل إلى محبوبه ما دام فيه، فهو يترقَّب مفارقته.

وقوله: «**وسلبت السلوّ**» يعني أن صاحبه لم يبق له مطمع في سلوّه أبداً، وهذا أعظم ما يكون من الحب والشوق. أنَّ المحب ييأس من السلو وينقطع طمعه منه كما ييأس من الأُمور الممتنعة، كرجوع أيام الشباب عليه وعَوده طفلاً ونحو ذلك.

وقوله: «**ولم يُنَهْنِهْها مغزىً دون اللقاءِ**» أي أنَّ هذه النار لا يبرِّدها، ولا يفترّ حرّها مقصود ولا مطلب ولا مراد دون لقاءِ محبوبه، فليس له سبيل إلى تبريدها وتسكينها إلا بلقاءِ محبوبه.

فصل [طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهم ثمان عشرة طبقة]

الطبقة الأولى: وهى العليا على الإطلاق مرتبة الرسالة، فأكرم الخلق على الله وأخصهم بالزلفى لديه رسله، وهم المصطفون من عباده الذين سلَّم عليهم في العالمين كما قال تعالى: ﴿**وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الصافات: 181] ، وقال تعالى: ﴿**سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ**﴾ [الصافات: 79] ، وقال تعالى: ﴿**سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الصافات: 109-110] ، ﴿**سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ**﴾ [الصافات: 130] ، وقال تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى**﴾ [النمل: 59] . والمقصود أن الله سبحانه وتعالى قد سلم على المصطفين من عباده، والرسل أفضلهم، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه أخلصهم: ﴿**بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ**﴾ [سورة ص: 46-47] ، ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناءَ على رسالته وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم

من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً[157] على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخول إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

الطبقة الثانية: من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيل الله بعضهم على بعض.

الطبقة الثالثة: الانبياء الذين لم يرسَلوا إلى أُممهم، وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة، فاختصوا عن الأُمة بإيحاء الله إليهم، وإرساله ملائكته إلَيْهِمْ واختصت الرسل عنهم بإرسالهم إلى الأُمة بدعوتهم إلى الله بشريعته وأمره، واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم.

الطبقة الرابعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أُممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله، على طرقهم ومنهاجهم، ولهذا أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية، قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحُسْنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾ [النساء:69] ، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم

(157) المراد بالأول سيدنا إبراهيم، وبالثاني سيدنا موسى، وبالثالث سيدنا ادريس على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول ﷺ وأُمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وقال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ [الحديد: 19].

الطبقة الخامسة: أئمة العدل وولاته الذين تؤمن بهم السبل ويستقيم بهم العالم ويستنصر بهم الضعيف ويذل بهم الظالم ويأمن بهم الخائف وتقام بهم الحدود ويدفع بهم الفساد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقام بهم حكم الكتاب والسنة وتطفأُ بهم نيران البدع والضلالة، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن ﷻ يوم القيامة فيكونون عليها.

قال النبي ﷺ: « المقسطون عند الله على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولُّوا»[158].

الطبقة السادسة: المجاهدون في سبيل الله، وهم جند الله، الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم بيضة الإسلام ويحمي لهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله

(158) مسلم (1827).

ونصر دينه وإعلاءِ كلمته ودفع أعدائه، وهم شركاءُ لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم، ولهم مثل أُجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه.

الطبقة السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم في مهماتهم وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته فى الحق»[159]، يعني أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمة ويتمنى مثلها، إلا أحد هذين، وذلك لما فيهما من منافع النفع العام والإحسان المتعدي إلى الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه وهذا ينفعهم بماله، والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله.

ولا ريب أنَّ هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر العالم إلا بهما، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفقوا مِنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: 262].

الطبقة الثامنة: طبقة من فتح الله له باباً من أبواب الخير القاصر على نفسه كالصلاة والحج، والعمرة، وقراءة القرآن، والصوم

(159) البخاري (73)، مسلم (816).

والاعتكاف، والذكر ونحوها، مضافاً إلى أداءِ فرائض الله عليه فهو جاهد في تكثير حسناته، وإملاءِ صحيفته، وإذا عمل خطيئته تاب إلى الله منها. فهذا على خير عظيم، وله ثواب أمثاله من أعمال الآخرة. ولكن ليس له إلا عمله، فإذا مات طويت صحيفته بموته فهذه طبقة أهل الربح والحظوة أيضاً عند الله.

الطبقة التاسعة: طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدى فرائض الله ويترك محارم الله، مقتصراً عل ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه. فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه، ولا يزيد على ما فرض عليه.

هذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الإسلام فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه؛ فقال ﷺ: «أفلح إن صدق «[160]، وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدّوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه.

قال تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَونَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً**﴾ [النساء: 31] .

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تُغْشَ كبيرة»[161]، فإن غشي أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحاً لم يخرجوا من طبقتهم وكانوا بمنزلة من لا ذنب له.

(160) البخاري (46)، مسلم (11).

(161) مسلم (233).

فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما: الحسنات الماحية، والثاني: اجتناب الكبائر. وقد نص عليها سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿**وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: 114] ، وقال تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء:31]

الطبقة العاشرة: طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاءِ ناجون من عذاب الله إما قطعا عند قوم وإما ظنا ورجاء عند آخرين، وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

الطبقة الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً: فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاءِ أيضاً ناجون فائزون قال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف: 8- 9] .

قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته

بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف[162].

وهذه الموازنة تكون بعد القصاص ، واستيفاءِ المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته.

الطبقة الثانية عشر: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة.

فهؤلاء هم أهل الأعراف ، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل هذه الطبقة فى سورة الأعراف- بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار- فقال تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمَ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف: 46- 47] ، فقوله تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ**﴾ [الأعراف: 46] أى بين أهل الجنة والنار حجاب، قيل: هو السور الذى يضرب بينهم له باب

(162) تفسير الطبري ج8.

باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب: باطنه الذى يلى المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذى يلي الكفار من جهته العذاب.

والأعراف جمع عُرْفٍ، وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار.قال حذيفة وعبد الله بن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاءُ ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته(163).

الطبقة الثالثة عشرة: طبقة أهل المحنة والبلية، نعوذ بالله. وإن كانت آخرتهم إلى عفو وخير، وهم قوم مسلمون خفت موازينهم ورجحت سيئاتهم على حسناتهم فغلبتها السيئات، فهذه الطبقة التى اختلفت فيها أَقاويل الناس وكثر فيها خوضهم وتشعبت مذاهبهم وتشتَّتْ آرآوهم، والأرجح هو من ترجحت سيئاته بواحدة دخل النار, وهؤلاء هم القسم الذين جاءَت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ، فإنهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار أعمالهم: فمنهم من تأْخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ويلبثون فيها على قدر أعمالهم، ثم يخرجون منها، فينبتون على أنهار الجنة: فيفيض عليهم أهل الجنة من الماءِ حتى تنبت أجسادهم، ثم يدخلون الجنة. وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة

(163) سبق تخريجه.

الشافعين، وهم الذين يأمر الله سيد الشفعاءِ مراراً أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان.

وإخبار النبي ﷺ أنهم يكونون فيها على قدر أعمالهم مع قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43] [النحل:32، الزخرف 72، الطور:19 السجدة:14، المرسلات:43] ، و ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 90] ، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 171] .

وأضعاف ذلك من نصوص القرآن والسنة يدل على ما قاله أفضل الأُمة وأعلمها بالله وكتابه وأحكام الدارين أصحاب محمد ﷺ ، والعقل والفطرة تشهد له، وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذى بهرت حكمته العقول.

الطبقة الرابعة عشرة: قوم لا طاعة لهم ولا معصية، ولا كفر ولا إيمان.

وهؤلاء أصناف: منهم من لم تبلغه الدعوة بحال ولا سمع لها بخبر، ومنهم المجنون الذى لا يعقل شيئاً ولا يميز، ومنهم الأصم الذى لا يسمع شيئاً أبداً، ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميزوا شيئاً.

فاختلفت الأُمة فى حكم هذه الطبقة اختلافاً كثيراً، والمسألة التى وسعوا فيها الكلام هى مسألة أطفال المشركين. وأما أطفال المسلمين فقال الإمام أحمد: لا يختلف فيهم أحد يعنى أنهم فى الجنة. وحكى ابن عبد البر عن جماعة: أنهم توقفوا فيهم، وأن جميع الولدان تحت المشيئة قال: وذهب إلى هذا القول جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث.

الطبقة الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله. وهؤلاء المنافقون، وهم فى الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾ [النساء: 145]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم فى دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ [المنافقون: 4].

الطبقة السادسة عشرة: رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول فى الإيمان. قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ**﴾ [النحل: 88] فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعى إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أنَّ عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به.

وهذا النوع فى الأشقياء مقابل دعاة الهدى فى السعداءِ، فأُولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم.

الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم يقولون: إنا وجدنا آباءَنا على أُمة، ولنا أُسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساءِ المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أُولئك أنفسَهم من السعي في إطفاءِ نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأُمة على أنَّ هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم, فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عناداً وإما جهلاً وتقليداً لأهل العناد.

فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعيهم وأنهم يتحاجون في النار وأن الأتباع يقولون: ﴿**رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلِكِنْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 38]. فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا فى العذاب ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً. وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُا مِنَّا**﴾ [البقرة: 166-167] .

وصحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لا ينقص من أوزارهم شيئاً»[164]، وهذا يدل على أنَّ كفر مَن اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

الطبقة الثامنة عشرة: طبقة الجن، وقد اتفق المسلمون على أنَّ منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ [الجن: 11] , وقيل: المعنى كانت طرائقنا طرائق قدداً[165]. وقال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّاالْقَاسِطُونَ﴾ [الجن:49] فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: 15]، قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار. وهذه الطبقات بإزاءِ طبقات بني دم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون وكفار. فالصحالون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاءِ المقتصدين والقاسطون بإزاءِ الكفار. ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أُخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياءُ والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاءِ، بل حيلتهم الصلاح. الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النُّذُر.

(164) مسلم (1017).

(165) كنا طرائق قددا، أي: فِرَقا مختلفين، مسلمين وكافرين. تفسير الجلالين، ج2.

وقد اتفق المسلمون على أنَّ كفار الجن في النار وقد دلَّ على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [السجدة: 13].

فهذا ما وصل إليه الإحصاءُ من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أَعلى وأدنى ووسط. وهم درجات عند الله، والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن بينهما في الدرجة.

قال تعالى: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ [الصافات: 22]، قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: «أزواجهم» أشباههم ونظراؤهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس الموضعات

تقديم	5
مقدمة التهذيب	8
ترجمة المؤلف	13
خطبة الكتاب للمؤلف	16
فصل [في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه]	22
أقسام الفقر	24
[معنى الفقر ودرجاته]	82
فصل [في تقسيم الغنى إلى عال وسافل]	54
فصل [في الغنىٰ العالي]	64
فصل [في تفسير غنىٰ النفس]	35
فصل [المرتبة الاولى من الدرجة الثالثة من درجات الغنىٰ]	65
فصل [المرتبة الثانية من الدرجة الثالثة]	85

فصل [المرتبة الثالثة من الدرجة الثالثة من درجات الغنىٰ بالرَّبّ] 62

فصل [في ذكر كلمات أرباب الطريق في الفقر والغنىٰ] 65

[أحبُّ الخلق إلى الله مَن اتَّصف بصفات التي يحبها الله] 71

[سبعة قواعد للسالكين] 74

[القاعدة الاولى: الانقياد للحق والثبات عليه] 74

[القاعدة الثانية: الابتلاء تمحيص لحال العبد] 75

[القاعدة الثالثة: مشاهد الناس فى المعاصي والذنوب] 77

[القاعدة الرابعة: انواع الإنابة الى الله تعالى] 91

[القاعدة الخامسة: طريق الوصول إلى الاستقامة] 94

فصل [صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته] 98

[الطريق الى الله واحد] 100

[القاعدة السادسة: لا بدَّ للسائر إلى الله من قوتين: علمية وعملية] 102

فصل [فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية] 105

[القاعدة السابعة: المسافر نوعان] 108

فصل [مايفعله السابق المقرب منذ استيقاظه] 114

فصل 117

فصل [فيما يفعله بعد فراغه من صلاة الصبح] 119

فصل [كمال العبودية]	122
فصل [السابقون بالخيرات سلَّموا اليه سبحانه التدبير]	125
[حقيقة المحبة الصادقة]	129
[إذا محيت السيئة بالتوبة هل تحل محلها الحسنة؟]	137
[في الزهد]	139
[فصل في التوكل]	144
[الفناء]	149
فصل [لا ينفكُّ الصبر عن الشكر]	151
[الصبر عن المعصية]	155
فصل [الصبر على الطاعة]	158
فصل [الصبر على البلاء]	159
فصل [في الحزن]	162
فصل [في الخوف]	166
[الهيبة]	171
فصل [في المحبة]	174
فصل [في الإيثار]	177
فصل [أفضل أنواع الإيثار: الإيثار المتعلق بالخالق]	182
فصل [موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها]	185

فصل [تعريفات المحبة] 191

فصل [صيغ التعبير عن المحبة] 193

[محبة العوام والخواص] 196

فصل [في الشوق] 204

فصل [مراتب الشوق ومنازله] 209

فصل [طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهم ثمان عشرة طبقة] 213

فهرس المصادر والمراجع

جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أبو عمرو أحمد بن عطية الوكيل، دار ابن الجوزي-الدمام، ط1، 1444ه

تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول ﷺ والصحابة التابعين: أبي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازى ت327، تحقيق:د.أحمد بن عبدالله العماري الزهراني و د.حكمت بن بشير بن ياسين ، دار ابن الجوزي-الدمام، ط1، 1439ه

تفسير القرآن العظيم: ابو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي ت774ه، تحقيق: دار احياء التراث العربي، دار احياء التراث العربي-بيروت، ط1، 1420.

تفسير الجلالين ومعه الجمالين على الجلالين: جلال الدين المحلي ت864 ه وجلال الدين السيوطي ت911ه، الملا علي القاري 1014ه، تحقيق: توفيق محمود تكلة، دار اللباب-اسطنبول، ط2، 1445ه

الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني: احمد بن عبدالرحمن البنا الساعاتي ت1378ه، تحقيق: حسين سليم اسد الداراني، مرهف حسين اسد، دار السلام-القاهرة، ط1، 1442ه.

صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري ت256ه، تخريج: عزالدين ضلي، عماد الطيار، ياسر حسن، مؤسسة الرسالة الناشرون-بيروت، ط3، 1443ه.

صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت261ه، تخريج: ياسر حسن، عزالدين ضلي، عماد الطيار، مؤسسة الرسالة الناشرون-بيروت، ط2، 1443ه.

سنن ابي داود: ابي داود سليمان بن الاشعث الأزدي السجستاني ت275ه، تخريج: ياسر حسن، عزالدين ضلي، عماد الطيار، مؤسسة الرسالة الناشرون-بيروت، ط1، 1439ه.

جامع الترمذي: ابي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت279ه، تحقيق: يوسف الحاج احمد مكتبة ابن حجر-دمشق، ط1، 1424ه.

سنن النسائي: ابي عبدالرحمن احمد بن شعيب النسائي ت303ه، تخريج: عماد الطيار، ياسر حسن، عزالدين ضلي، مؤسسة الرسالة الناشرون-بيروت، ط1، 1442ه.

سنن ابن ماجة: ابي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة القزيني ت273ه، تخريج: عماد الطيار، ياسر حسن، عزالدين ضلي، مؤسسة الرسالة الناشرون-بيروت، ط1، 1443ه.

الادب المفرد: محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري ت256ه، تحقيق: محمد الياس باره بنكوي، دار ابن كثير-بيروت، ط2، 1436ه.

شعب الايمان: ابي بكر احمد بن الحسين البيهقي ت458ه، تحقيق: د.عبدالعلي عبدالحميد حامد، مكتب الرشد-رياض، ط4، 1437ه

رياض الصالحين: محيي الدين ابي زكريا يحيي بن شرف النووي الشافعي ت676ه، مراجعة: عبدالرحمن حسن محمود، مكتبة ابن النيل-القاهرة

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ابي الحسن علي لبي بكر بن سليمان الشافعي نورالدين الهيثمي ت807ه، تحقيق: حسين سليم اسد الداراني، دار المنهاج-بيروت، ط1، 1436ه

الزهد والرقائق: عبدالله بن المبارك بن واضح المروزي ت181ه، تحقيق: عادل مرشد، دار الفاروق-عمَّان، ط1، 1443ه

الرسالة القشيرية: عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري النيسابوري ت465ه، مكتبة الهاشمية-اسطنبول، ط1، 1442ه

مدارج السالكين: محمد بن ابي بكر بن ايوب ابن قيم الجوزية ت751ه، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1، 1420ه

الغنية لطالبي طريق الحق والدين: عبدالقادر الجيلاني الحسني ت561ه، تحقيق: فرج توفيق الوليد، مكتبة الشرق الجديد-بغداد، ط1، 1404ه

وفيات الاعيان: شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان ت681هـ، تحقيق: د.احسان عباس، دار صادر-بيروت، ط6، 1434هـ

البداية والنهاية: ابو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي ت539هـ، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر-الجيزة، 1423هـ

كتاب الذيل على الطبقات الحنابلة: زين الدين ابي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين احمد البغدادي ت795هـ، دار المعرفة-بيروت، ط1، 1372هـ

الطبقات الكبرى: عبدالوهاب الشعراني ت973هـ، تحقيق: محمد اديب الجادر، دار ضياء الشام-دمشق، ط1، 1443هـ.

مختار الصحاح: ابي بكر محمد بن شمس الدين الرازي ت بعد 691هـ، تحقيق: ايمن عبدالرزاق الشوا، دار الفيحاء-دمشق، ط1، 1431هـ

المعجم الوسيط: ابراهيم مصطفى، احمد حسن الزيات، حامد عبدالقادر، محمد علي النجار، مؤسسة الصادق/دار الدعوة-طهران، ط5، 1383ه.